

أبو الشهداء
الحسين بن علي



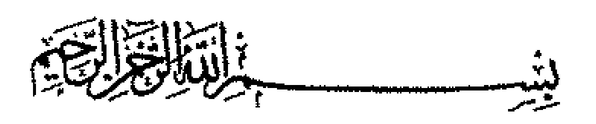


أَبُو الشُّهَدَاءِ

الحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ

عباس محمود العقاد





مقدمة

يسرني أن أقدم إلى حضرات القراء هذه الطبعة من كتاب « أبي الشهداء » ويعظم رجائي أن يصل إلى أيد كثيرة غير التي وصل إليها في طبعاته السابقة ، وأن يتحقق له من عموم الرسالة بهذه المثابة ما يتمناه كل مؤلف لكل كتاب يريد به رسالة من الرسالات .

ليس من عادتي أن أطلع في كتبي بعد الفراغ من طبعها ، ويتفق أن تمضي السنوات دون أن ألقي عليها نظرة لغير مراجعة عاجلة ، فإذا حدث بعد ذلك أن أنظر فيها لتقديمها إلى طبعة جديدة ، أمكنني أن أشعر بها شعور القارئ الذي يطلع عليها لأول مرة ؛ بعد أن شعرت بها شعور المؤلف الذي امتلأ بها وأدارها في نفسه عدة مرات . وقد أستغرب منها أمورًا كالتي يستغربها القراء الذين يحكمون على موضوعاتها حكم « الأجانب الغرباء » .

عجبًا ! إن مشكلة الحياة الكبرى لم تتغير منذ ألف وثلثمائة سنة ، ولم تزل الحرب على أشدها بين خدام أنفسهم وخدام العقائد والأمثلة العليا ، ولم يزل الشهداء يصلونها نارًا حامية من عبيد البطون والأكباد ، ولم يزل « داؤنا العياء » كما قال أبو العلاء ! .

كان هذا شعوري بكتاب أبي الشهداء حين قرأته من جديد لتقديمه إلى هذه الطبعة : مسكينة هذه الإنسانية ! لا تزال في عطش شديد إلى دماء الشهداء ، بل لعل العطش الشديد يزداد كلما ازدادت فيها آفات الأثرة والأنانية ونسيان المصلحة الخالدة في سبيل المصلحة الزائلة ، أو لعل العطش الشديد إلى دماء الشهداء يزداد في هذا الزمن خاصة دون سائر الأزمنة الغابرة ، لأنه الزمن الذي وجدت فيه الوحدة الإنسانية وجودًا ماديًّا فعليًّا وأصبح لزامًا لها أن توجد في الضمير وفي الروح كما وجدت في الخريطة الجغرافية وفي براج السفن والطيارات .

الوحدة الإنسانية اليوم حقيقة واقعية عملية ، ولكنها حقيقة واقعية عملية في كل شيء إلا في ضمير الإنسان وروح الإنسان .

حقيقة واقعية فى اشتباك المصالح التجارية ، وفى اتصال الأخبار بين كل ناحية من الكرة الأرضية وناحية أخرى .

حقيقة واقعية فى أعصاب الكرة الأرضية إذا صح هذا التعبير ، فلا يضطرب عصب من أعصابها فى أقصى المشرق حتى تتداعى له سائر الأعصاب فى أقصى المغرب وفى أقصى الشمال والجنوب .

حقيقة واقعية فى كل شيء إلا فى ضمير الإنسان وفى روح الإنسان ، وهذا هو المهم والأهم إذا أريدت للإنسانية وحدة صحيحة صالحة جديرة بالدوام .

ولن توجد هذه الوحدة إلا إذا وجد الشهداء فى سبيلها . فأنعم بمقدم « أبى الشهداء » من جديد إلى ضمائر فريق كبير من بنى الإنسان ، لعلهم يقدمون رسالته خطوة واحدة أو خطوات فى سبيل اليقين والعمل الخالص لوجه الحق والكمال .

نتفاءل أو لا نتفاءل ..

نتشاءم أو لا نتشاءم ..

ليست هذه هى المسألة ، وإنما المسألة هى أن طريق التفاؤل معروف وطريق التشاؤم معروف ، فلا تتحقق مصلحة الإنسانية إلا إذا عمل لها كل فرد من أفرادها ، وهانت الشهادة من أجلها على خدامها ، وتقدم الصفوف من يقدم على الاستشهاد ، ومن ورائه من يؤمن بالشهادة والشهداء .

لا عظة ولا نصيحة ، ولكنها حقيقة تقرر كما تقرر الحقائق الرياضية . فلا بقاء للإنسانية بغير العمل لها ، ولا عمل لها إن لم ينس الفرد مصلحته ، بل حياته فى سبيلها .

لا بقاء للإنسانية بغير الاستشهاد ..

وفى هذه الآونة التى تتردد فيها هذه الحقيقة فى كل زاوية من زوايا الأرض نلتفت نحن أبناء العربية إلى ذكرى شهيدها الأكبر فنحنى الرؤوس إجلالاً لأبى الشهداء .

عباس محمود العقاد

مزاجان تاريخيان

طبائع الناس

يتناوب طبائع الناس مزاجان متقابلان : مزاج يعمل أعماله للأريحية والنخوة ، ومزاج يعمل أعماله للمنفعة والغنيمة .

والمزاجان لا ينفصلان كل الانفصال ..

فقد تقترن الأريحية بالمنفعة ، وتقترن المنفعة بالأريحية ، ولكنهما إذا اصطدما — ولا سيما فى الأعمال الكبيرة — لم يعسر عليك أن تفصل المزاجين وتعزل المعسكرين . فهذا للأريحية حتى يجبَّ المنفعة ويخفيها ، وهذا للمنفعة حتى يجبَّ الأريحية ويخفيها .. أو كذلك يتراءيان .

وأصحاب المطالب الكبرى فى التاريخ يعتمدون على هذا المزاج كما يعتمدون على ذاك .. فمنهم من يتوسل إلى الناس بما فيهم من الجشع والخسة وقرب المأخذ وسهولة المسعى ، ومنهم من يتوسل إلى الناس بما فيهم من طموح إلى النبل والنجدة وركوب المخاطر ونسيان الصغائر فى سبيل العظائم .

ولكل منهما سبيله إلى النفوس وأمله فى النجاح على حسب الأوقات والبيئات .

إلا أن الأريحية أخلد من المنفعة بسنة من سنن الخلق التى لا تتبدل مع الأوقات والبيئات .

لأن منفعة الإنسان وجدت لفرد من الأفراد .

أما الأريحية التى يتجاوز بها الإنسان منفعته فقد وجدت للأمة كلها أو للنوع الإنسانى كله . ومن ثم يكتب لها الدوام إذا اصطدمت بمنافع هذا الفرد أو ذاك .

ولقد يبدو من ظواهر الأمور أن الأمر على خلاف ما نقول ، لأن الحريص على منفعته يبلغها ويمضى قدمًا إليها ، فينال المنفعة التى لا ينالها صاحب الأريحية لأنه يتركها إذا اصطدمت بما هو أجل منها .

وهذا صحيح مشهود لا مراء فيه ..

ولكن النجاح فى الحركات التاريخية لن يسمى نجاحًا إذا هو لم يتجاوز حياة فرد أو طائفة من الأفراد . فإذا قيل إن حركة من الحركات التاريخية قد نجحت ، فمغزى ذلك بداهة أن الأفراد القائمين بها يذهبون وهى الباقية بعد ذهابهم .. ومن هنا يصح أن يقال إن الأريحية أبقى وأنجح إذا هى اصطدمت بالمنفعة الفردية ، لأن ذهاب الفرد هنا أمر مفروغ منه بعد كل حساب ، سواء أكان حساب الأريحيين أم حساب النفعيين .

وأصحاب الأريحية إذن أبعد نظرًا من دهاة الطامعين والنهازين للفرص والمغانم العاجلة . لأنهم خلقوا بفطرتهم على حساب أعمار تتجاوز حساب عمرهم القصير . فهم — شعروا أو لم يشعروا — بعيدو النظر إلى عواقب الأمور ، وإن خيِّل إلى الناس أنهم طائشون متهجمون .

أما موقف المؤرخين فى العطف على حركات التاريخ فهو على ما نرى موقف مزاج من هذين المزاجين ، وليس بموقف سبيل من سبل البحث أو مذهب من مذاهب التفكير .

فالذين يجنحون بمزاجهم إلى المنفعة يفهمون أعذار المنتفعين وينكرون ملامتهم على ناقديهم .

والذين يجنحون بمزاجهم إلى الأريحية يفهمون دوافع النخوة ويحسبونها عذرًا لأصحابها أقوى من غواية المنافع والأرزاق .

إلا أن الصواب هنا ظاهر جد الظهور لمن يريد أن يراه :

الصواب أن العطف على جانب المنفعة عبث لا معنى له ولا حكمة فيه ..

وأن العطف على جانب الأريحية واجب يخشى على الناس من تركه وإهماله ، إذ كان تركه مناقضًا لصميم الفطرة التى من أجلها فطر الناس على الإعجاب بكل ما يستحق الإعجاب .

فليس يخشى على الناس يومًا أن ينسوا منافعهم ويقصروا فى خدمة أنفسهم ، سواء عطف عليها المؤرخون أو أعرضوا عنها ساخرين منكرين .

ولكنهم يخسرون الأريحية إذا فقدوها وفقدوا الإعجاب بها والتطلع إليها ، وهى التى

خلقت ليعجب بها الناس . لأن حرص الإنسان على منفعته لا يغنيهم فى حياتهم العامة أو فى حياتهم الباقية . أما الأريحية التى يتجاوز بها الإنسان نفسه فى سبيل معنى من المعانى أو مثل عال من الأمثلة العليا ، فهى الخليقة النافعة للنوع الإنسانى بأسره ، وإن جاز اختلافهم فى كل معنى وفى كل مثل عال .

صراع بين الأريحية والمنفعة

فى ماضى الشرق وحاضره كثير من الحركات التاريخية التى وقع الصدام فيها بين الأريحية والمنفعة على أكثر من غرض واحد .

ولكننا لا نحسبنا مهتدين إلى نموذج لهذا الصدام أوضح فى المبادئ وأهدى إلى النتائج وأبين عن خصائص المزاجين معًا من النموذج الذى عرضه لنا التاريخ فى النزاع بين الطالبيين والأمويين ، ولا سيما النزاع بينهما على عهد الحسين بن علىّ ، ويزيد بن معاوية .

قلنا فى كتابنا « عبقرية الإمام » ما فحواه أن الكفاح بين على ومعاوية ، لم يكن كفاحًا بين رجلين أو بين عقلين وحيلتين .. ولكنه كان على الحقيقة كفاحًا بين الإمامة الدينية والدولة الدنيوية ، وأن الأيام كانت أيام دولة دنيوية فغلب الداعون إلى هذه الدولة من حزب معاوية ، ولم يغلب الداعون إلى الإمامة من حزب الإمام .

ولو حاول معاوية ما حاوله علىّ لأخفق وما أفلح ، ولو أراد علىّ أن يسلك غير مسلكه لما أفاده ذلك شيئًا عند محبيه ولا عند مبغضيه .

فإذا جاز لأحد أن يشك فى هذا الرأى ، وأن يرجع بنجاح معاوية إلى شىء من مزاياه الشخصية فذلك غير جائز فى الخلاف بين الحسين ويزيد . وكل ما يجوز هنا أن يقال أن أنصار الدولة الدنيوية غلبوا أنصار الإمامة على سنة الخلفاء الراشدين ، لأن مطالب الإمامة غير مطالب الزمان .

ما من أحد قط يزعم أن الصراع هنا كان صراعًا بين رجلين أو بين عقلين وحيلتين . وإنما هو الصراع بين الإمامة والملك الدنيوى ، أو بين الأريحية والمنفعة فى جولتهما الأولى ، ولم يكن ليزيد قط فضل كبير أو صغير بما قد بلغه من الفوز والغلبة .

بل لا يمكن أن يتعلل أحد هنا بما يتعلل به أنصار المنافع عامة من « تقريره للنظام

وحفظه للأمن العام » .. فإن يزيد لم يكن له فضل قط فى قيام الدولة كما قامت على عهده وبعد عهده ، وإنما كانت الدولة تتماسك برغبة الراغبين فى بقائها لا بقدرة الأمير المشرف عليها . وقد حدث بعد موت يزيد أن بويع ابنه معاوية الثانى بالشام — وكان من الزاهدين فى الحكم — فنادى الناس إلى صلاة جامعة ، وقال لهم : « أما بعد فإنى قد ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم ، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم » ثم أوى إلى بيته ومضت شئون الدولة على حالها حتى مات بعد ثلاثة أشهر ، وله مع هذا منافس قوى كعبد الله بن الزبير بالحجاز .

* * *

فلا وجه للمفاضلة بين الحسين بن علىّ ويزيد بن معاوية .. ورأى معاوية وأعوانه فى هذا أسبق من رأى الطالبيين وخصوم الأمويين ، فقد ترددوا كثيرًا قبل الجهر باختيار يزيد لولاية العهد وبيعة الخلافة بعد أبيه . ولم يستحسنوا ذلك قبل إزجائهم النصح إلى يزيد غير مرة بالإقلاع عن عيوبه وملاهيه . ولما أنكر بعض أولياء معاوية جرأة الحسين عليه فى الخطاب ، وأشاروا عليه أن يكتب له كتابًا « يصغر إليه نفسه » .. قال : « وما عسيت أن أعيب حسينًا ؟ .. والله ما أرى للعيب فيه موضعًا » .

* * *

وثم تعلة أخرى يتعلل بها المفاضلون بين على ومعاوية ولا موضع لها فى المفاضلة بين ولديهما الحسين ويزيد . وتلك ما يزعمونه من غلبة معاوية على « علىّ » بحجته فى الإقناع ونشاطه أو نشاط أصحابه فى الدعوة السياسية .

فهذه التعلة إن صلحت لتعليل نجاح معاوية ، فما هى بصالحة لتعليل نجاح يزيد .

لأن الذين انخدعوا أو تخادعوا للصيحة التى صاح بها معاوية فى المطالبة بدم عثمان ، كانوا يرددون هذه الصيحة ويساعدهم على ترديدها حقد الثأر المزعوم وسورة العصبية المهتاجة ، ثم يساعدهم على ترديدها فى مبدأ الأمر أن معاوية لم يكن مجاهرًا بطلب الخلافة ولا متعرضًا لمزاحمة أحد على البيعة ، وإنما كان يتشبث بمقتل عثمان والمطالبة بدمه ، ولا يزيد فى دعواه على ادعاء ولاية الدم وصلة القرابة .

ولكن الصائحين بهذه الصيحة مع معاوية قد عاشوا حتى رأوا بأعينهم مبلغ الغيرة على تراث عثمان ، وعلموا أن المُلك هو الغرض المقصود من وراء تلك الفتن والأرزاء ،

وأن معاوية لا يقنع بأن يملك لنفسه حتى يورث المُلك ولده من بعده ، وليس هو من أهل الرأى ولا هو من أهل الصلاح ولا هو ممن تتفق عليه آراء هؤلاء ، ولكنه فتى عربيد يقضى ليله ونهاره بين الخمور والطنابير ، ولا يفرغ من مجالس النساء والندمان إلا ليهرع إلى الصيد فيقضى فيه الأسبوع بعد الأسبوع بين الأديرة والبوادى والآجام ، لا يبالى خلال ذلك تمهيدًا لمُلك ولا تدريبًا على حكم ولا استطلاعًا لأحوال الرعية الذين سيتولاهم بعد أبيه ، ثقة بما صار إليه من التمهيد والتوطيد وما سوف يصير .

فكل خلاف جاز فى المفاضلة بين علىّ ومعاوية غير جائز فى المفاضلة بين الحسين ويزيد .. وإنما الموقف الحاسم بينهما ، موقف الأريحية الصراح فى مواجهة المنفعة الصراح . وقد بلغ كلاهما من موقفه أقصى طرفيه وأبعد غايتيه ، فانتصر الحسين بأشرف ما فى النفس الإنسانية من غيرة على الحق وكراهة للنفاق والمداراة ، وانتصر يزيد بأرذل ما فى النفس الإنسانية من جشع ومراء وخنوع لصغار المتع والأهواء .

أقام الحسين ليلته الأخيرة بكربلاء وهو لا ينتظر من عاقبته غير الموت العاجل بعد سويعات ، فأذن لأصحابه أن يتفرقوا عنه تحت الليل إن كانوا يستحيون أن يفارقوه فى ضوء النهار . فأبوا إلا أن يموتوا دونه ، وقال له مسلم بن عوسجة الأسدى : « أنحن نتخلى عنك ولم نعذر إلى الله فى أداء حقك ؟ أما والله لا أفارقك حتى أكسر فى صدورهم رمحى وأضربهم بسيفى ما بقى قائمه بيدى ، ولو لم يكن معى سلاحى لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك » . وقد بر مقسمه وبقى ومات .. ودنا منه حبيب ابن مظاهر وهو يجود بنفسه ، فقال له : « لولا أنى أعلم أنى فى أثرك لاحق بك لأحببت أن توصينى حتى أحفظك بما أنت له أهل » ، فقال وكان آخر ما قال : « أوصيك بهذا — رحمك الله — أن تموت دونه » وأومأ بيده نحو الحسين .

وقتل الحسين .. وذهب الأمل فى دولته ودولة الطالبيين من بعده إلى أجل بعيد ، ولكنه كان يشتم بالكلمة العوراء فيهون على الرجل من أصحاب الأريحية أن يموت ولا يصبر على سماع تلك الكلمة أو يترك الجواب عليها .

فلما نعى الحسين فى الكوفة نادى واليها ابن زياد إلى الصلاة جامعة . وصعد إلى المنبر ، وخطب القوم فقال : « الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين بن على وشيعته » .

فما أتمها حتى وثب له من جانب المسجد شيخ ضرير هو عبد الله بن عفيف الأزدى

الذى ذهبت إحدى عينيه يوم الجمل وذهبت عينه الأخرى يوم صفين . فصاح بالوالى غداة يوم انتصاره وزهوه : « يا ابن مرجانة ! أتقتل أبناء النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين ؟ إنما الكذاب أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه » .

فما طلع عليه الصباح إلا وهو مصلوب ..

إلى هذا الأفق الأعلى من الأريحية والنخوة ارتفعت بالنفس الإنسانية نصرة الحسين ..

وإلى الأغوار المرذولة من الخسة والأثرة هبطت بالنفس الإنسانية نصرة يزيد .. وحسبك من خسة ناصريه ، أنهم كانوا يجزون بالحطام وهتك الأعراض على غزو « المدينة » النبوية واستباحة ذمارها فيسرعون إلى الجزاء .. يسرعون إليه وليسوا هم بكافرين بالنبى الدفين فى تلك المدينة ، فيكون لهم عذر الإقدام على أمر لا يعتقدون فيه التحريم !

بل حسبك من خسة ناصريه أنهم كانوا يرعدون من مواجهة الحسين بالضرب فى كربلاء لاعتقادهم بكرامته وحقه ، ثم ينتزعون لباسه ولباس نسائه فيما انتزعوه من أسلاب ! ولو أنهم كانوا يكفرون بدينه وبرسالة جده ، لكانوا فى شرعة المروءة أقل خسة من ذاك .

* * *

وتتقابل وسائل النجاح فى المزاجين كما تتقابل المقاصد والغايات ..

فكان شعار معاوية وأشياعه : « إن لله جنودًا من العسل » وهو يعنى العسل الذى يداف بالسم ليخلى طريق النجاح من كل معترض فيها ولو كان من الأصدقاء . فكثرت روايات المؤرخين عن مقتل الحسن بن على والأشتر النخعى بهؤلاء الجنود ! وأعجب منها ما قيل عن مقتل عبد الرحمن بن خالد ، وقد كان نصيرًا لمعاوية فى حروب الشام .. فإنه مات مسمومًا على ما اشتهر من الروايات ، لأنه رشح للخلافة بعد معاوية دون يزيد .. وعلم ذلك أقرباء عبد الرحمن بن خالد ، فقتلوا طبيب معاوية « ابن أثال » الذى اتهموه بسمه فى الدواء .

ولو استباح الحسين وشيعته هذه الوسائل مرة واحدة ، لكانوا وشيكين أن يبلغوا مقصدهم من قريب . فقد كان هانئ بن عروة شيخ كندة من أنصار الحسين وأبيه ، وكانت كندة كلها تطيعه وتلبيه حتى قيل أنه « إذا صرخ لباه منهم ألف سيف » .

فزاره عبيد الله بن زياد – والى يزيد على الكوفة – ليعوده فى بعض مرضه ويتألفه ويستميله إليه . وقيل إن هانئًا عرض على مسلم بن عقيل بن أبى طالب أن يقتل عبيد الله بن زياد وهو عنده ، وقيل إن الذى عرض ذلك رجل من صحبة هانىء المقربين . فأبى مسلم ما عرضه هذا وذاك ، وهو يومئذ طلبة ذلك الوالى ، وجنوده قد تعقبوه وأهدروا دمه وأجزلوا الوعود لمن يسلمه أو يدل عليه ، وقال : « إنا أهل بيت نكره الغدر » . ولو أنه بطش بابن زياد ، لقد بطش يومئذ بأكبر أنصار يزيد .

وليقل من شاء إن قتل ابن زياد كان صوابًا راجحًا ..

وإن التحرج من قتله كان خطأً فادحًا من وجهة السياسة أو من وجهة الأخلاق ، فالذى لا يشك فيه أنه إن كان صوابًا فهو صواب سهل يستطيعه كثيرون ، وإن كان خطأً فهو الخطأ الصعب الذى لا يستطيعه إلا القليلون .

* * *

كذلك يقول من يقول إن الأريحية التى سَمَت إليها طبائع أنصار الحسين ، إنما هى أريحية الإيمان الذى يعتقد صاحبه أنه يموت فى نصرة الحسين فيذهب لساعته إلى جنات النعيم .. فهؤلاء الذين يقولون هذا القول يجعلون المنفعة وحدها باعث الإنسان إلى جميع أعماله ، حتى ما صدر منها عن عقيدة وإيمان . وينسون أن المنفعة وحدها لن تفسر لنا حتى الغرائز الحيوانية التى يصاب من جرائها الفرد طوعًا أو كرهًا فى خدمة نوعه ، بل ينسون أن أنصار يزيد لا يكرهون جنات النعيم ولا يكفرون بها ، فلماذا لم يطلبوها كما طلبها أنصار الحسين ؟ إنهم لم يطلبوها لأنهم منقادون لغواية أخرى ولأنهم لا يملكون عزيمة الإيمان ونخوة العقيدة ، ولا تلك القوة الخلقية التى يتغلبون بها على رهبة الموت ويقدعون بها وساوس التعلق بالعيش والخنوع للمتعة القريبة . فلولا اختلاف الطبائع لظهر شغف الناس جميعًا بجنات النعيم على نحو واحد ، ومضى الناس على سنَّة واحدة فى الأريحية والفداء ، ومرجع الأمر إذن فى آخر المطاف إلى فرق واضح بين طبائع الأريحيين وطبائع النفعيين .

وكذلك يقول من يقول إن الأريحية فى نفوس أنصار الحسين كانت أريحية أفراد معدودين ثبتوا معه ولم يخذلوه إلى يومه الأخير .. وينسى هؤلاء أن الارتفاع ليقاس بالقمة الواحدة كما يقاس بالقمم الكثيرة ، وأن الغور ليسبر فى مكان واحد كما يسبر

في كل مكان ، وإنما تكون الندرة هنا أدل على جلالة المرتقى الذى تطيقه النفس الواحدة أو الأنفس المعدودات ، ولا تطيقه نفوس الأكثرين .

فمدار الخلاف إذن فى هذه الجولة التاريخية إنما هو الفارق الخالد بين مزاجين بارزين كائنًا ما كان تفسير المفسرين للعقائد الروحية والمطامع السياسية ، ولم يتلاق هذان المزاجان على تناحر وتناجز كما تلاقيا عامة فى النزاع بين الطالبيين والأمويين ، وخاصة فى النزاع بين الحسين ويزيد .

فحياة الحسين رضى الله عنه صفحة ، لا صفحة تماثلها فى توضيح الفارق بين خصائص هذين المزاجين وبيان ما لكل منهما من عدة للنجاح فى كفاح الحياة ، سواء نظرنا إلى الأمد البعيد أو قصرنا النظر على الأمد القريب .

الخصومة

أسباب التنافس والخصومة

قبل أن يقف الحسين ويزيد متناجزين ، كانت الحوادث قد جمعت لهما أسباب التنافس والخصومة منذ أجيال ، وكان هذا التنافس بينهما يرجع إلى كل سبب يوجب النفرة بين رجلين : من العصبية ، إلى التراث الموروثة ، إلى السياسة ، إلى العاطفة الشخصية ، إلى اختلاف الخليقة والنشأة والتفكير .

تنافس هاشم وأمية على الزعامة قبل أن يولد معاوية .. فخرج أمية ناقمًا إلى الشام وبقى هاشم منفردًا بزعامة بنى عبد مناف فى مكة . فكان هذا أول انقسام وتقسيم بين الأمويين والهاشميين : هؤلاء يعتصمون بالشام ، وهؤلاء يعتصمون بالحجاز .

ثم علا نجم « أبى سفيان بن حرب بن أمية » فى الحجاز ، فأصبحت له زعامة مرموقة إلى جانب الزعامة الهاشمية . فلما ظهرت الدعوة المحمدية أخذته الغيرة على زعامته ، فكان فى طليعة المحاربين للدعوة الجديدة . وندرت غزوة من الغزوات لم تكن فيها لأبى سفيان أصبع ظاهرة فى تأليب القبائل وجمع الأموال . وشاءت المصادفات زمنًا من الأزمان أن يظل وحده على زعامة قريش فى حربها للنبى ﷺ . فمات الوليد بن المغيرة زعيم مخزوم ، ودان زعماء تيم وبنى عدن وغيرهم من البطون القرشية الصغيرة بالإسلام ، وبقى أبو سفيان وحده على رأس الزعامة الجاهلية والزعامة الأموية فى منازلة النبى ومن معه من المهاجرين والأنصار ، وبلغ من تغلغل العداء فى هذه الأسرة للنبى ﷺ ، أن أبا لهب عمه كان أوحد أعمامه فى الكيد له والتأليب عليه ، وإنما جاءه هذا من بنائه بأم جميل بنت حرب ، أخت أبى سفيان التى وصفها القرآن بأنها « حمالة الحطب » .. كناية عن السعى فى الشر وتأريث نار البغضاء ..

ثم فتحت مكة ، فوقف أبو سفيان ينظر إلى جيش المسلمين ويقول للعباس بن عبد المطلب : « والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلك ابن أخيك اليوم عظيمًا » .. فلما قال العباس : « إنها النبوة ! » . قال : « نعم إذن ! .. » .

وقد أسلم أبو سفيان وابنه معاوية عند فتح مكة ، وكان إسلام بيته أعسر إسلام عرف بعد فتحها . فكانت زوجه هند بنت عتبة تصيح فى القوم بعد إسلامه : « اقتلوا الخبيث الدنس الذى لا خير فيه .. قبح من طليعة قوم .. هلا قاتلتم ودفعتم عن أنفسكم وبلادكم ! .. » .

* * *

وظل أبو سفيان إلى ما بعد إسلامه زمنًا يحسب غلبة الإسلام غلبة عليه ، فنظر إلى النبى مرة وهو بالمسجد نظرة الحائر المتعجب وهو يقول لنفسه : « ليت شعرى بأى شيء غلبنى ! » فلم يخف عن النبى ﷺ معنى هذه النظرة ، وأقبل عليه حتى ضرب يده بين كتفيه وقال له : « بالله ، غلبتك يا أبا سفيان ! » .

وكان فى غزوة حنين يشهد هزيمة المسلمين الأولى فيقول : « ما أراهم يقفون دون البحر ! » وقيل إنه كان فى حروب الشام يهتف كلما تقدم الروم : « إيه بنى الأصفر » ، فإذا تراجعوا عاد فقال : « ويل لبنى الأصفر ! » .

* * *

وقد تألفه النبى ﷺ ما استطاع قبل فتح مكة وبعد فتحها ، فتزوج بنته أم حبيبة قبل الفتح وجعل بيته بعد الفتح حرمًا « من دخله فهو آمن ومن أغلق عليه داره فهو آمن » وأقامه على رأس المؤلفة قلوبهم الذين يزاد لهم فى العطاء عسى أن يذهب ما فى نفوسهم من الكراهة لغلبة الإسلام .

ومع هذا كان المسلمون يوجسون منه فلا ينظرون إليه ولا يقاعدونه ، حتى برم بذلك وأحب أن يمسح ما بصدورهم من قبله .. فتوسل إلى النبى أن يجعل معاوية كاتبًا بين يديه وأن يأمره ليقاتل الكفار كما كان يقاتل المسلمين .

ثم قبض النبى ﷺ ، ونجم الخلاف على مبايعة الخليفة بعده بين المهاجرين والأنصار وبين بعض الصحابة من جهة أخرى .. فاشرأب أبو سفيان إلى هذه الفتنة ، وخيل إليه أنه مصيب بين فتوقها ثغرة ينفذ منها إلى السيادة على قريش ، ثم السيادة من هذا الطريق على الأمة الإسلامية بأسرها .. فدخل على « علىّ » والعباس ، يثيرهما ويعرض عليهما المعونة بما فى وسعه من خيل ورجل . فنادى بهما : « يا على ! وأنت يا عباس ! .. ما بال هذا الأمر فى أذل قبيلة من قريش وأقلها ؟ والله لو شئت لأملأنها عليه — على أبى بكر — خيلاً ورجلاً وآخذنها عليه من أقطارها » ..

وهو لا ريب لم يغضب لأن الخلافة قد فاتت بنى هاشم ، ولا كان يسره أن تصير الخلافة إليهم فتستقر فيهم قرارًا لا طاقة له بتحويله .. ولكنه أراد خلافًا يفتح الباب لزعامة أموية يملك بها زمام قريش والدولة العربية جمعاء .

فلم يخف مقصده هذا على « علىّ » رضى الله عنه ، وقال له : « لا والله لا أريد أن تملأها عليه خيلاً ورجلاً ، ولولا أننا رأينا أبا بكر لذلك أهلاً ما خليناه وإياها » . ثم أنبه قائلاً : « يا أبا سفيان ! .. إن المؤمنين قوم نصحة بعضهم لبعض ، وإن المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض .. متخاونون وإن قربت ديارهم وأبدانهم » .

وانقضت خلافة أبى بكر وخلافة عمر والأمور تجرى فى مجراها الذى يأخذ على المطامع سبيلها ، ويخيف أصحاب الفتن أن يبرزوا بها من جحورها .

حتى قامت خلافة عثمان بن عفان فانتصر بها الأمويون أيما انتصار ، لأنه رأس من رؤوسهم وابن عم قريب لزعماء بيوتهم ، وأصبحت الدولة الإسلامية أموية لا يطمع فى خيراتها ولا ولاياتها إلا من كان من أمية أو من حزبها . فمروان بن الحكم وزير الخليفة الأكبر يغدق العطاء على الأقرباء ويحبسها عن سائر الناس ، ومعاوية بن أبى سفيان والى الشام يجتذب إليه الأقرباء والأولياء ومن يرجى منهم العون ويخشى منهم الخلاف .

فلما قتل عثمان رضى الله عنه كان المنتفعون بمناصب الدولة وأموالها جميعًا من الأمويين أو من صنائعهم المقربين ، ومال السلطان إلى جانب أمية على كل جانب آخر من القرشيين وغير القرشيين .

* * *

لا جرم كان الصراع بعد ذلك صراعًا معروف النهاية من مطلع البداية ، فقتل على ابن أبى طالب غيلة وخلصت الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان .

ثم بايع أناس من أهل العراق وفارس الحسن بن علىّ ، فلم يستقم له أمرهم وضاق صدره بجدالهم ومحالهم ، وكان رجلاً سكيتًا يكره المنازعة ويجنح إلى العزلة ، فصالح معاوية على شروط .. وفّى له معاوية بالمعجل منها والتوى عليه بمؤجلها . وزاد على ذلك كما تواتر فى شتى الروايات أنه أغرى امرأته جعدة بنت الأشعث بسمه ، ووعدها أن يزوجها يزيد ويعطيها مائة ألف درهم ، فوفى بوعد المال ولم يف بوعد الزواج .

وقد أوصى الحسن رضى الله عنه أن يدفن عند قبر جده إلا أن تخاف فتنة . فلما توفى

أرادوا دفنه حيث أوصى ، فقام مروان بن الحكم وجمع بنى أمية وزمرتهم ومنعوا مشيعيه .. فأنكر الحسين عليهم منع سبط النبى أن يدفن إلى جوار جده ، فقيل له : « إن أخاك قال إذا خفتم الفتنة ففى مقابر المسلمين سعة .. وهذه فتنة » .. فسكت على مضض .

أهداف معاوية

وقد كان معاوية ولا ريب ينوى أن يجعلها دولة أموية متعاقبة فى ذريته من بعده ، منذ تصدى للخلافة وخلا له المجال من أقوى منافسيه ، إلا أنه كان يتردد ويتكتم ولا يفضى بنيته إلى أقرب المقربين إليه ، ثم كبرت سنه وخاف أن يعجل عن قصده ، فمهد لبيعة ابنه يزيد بعض التمهيد وتوصل إلى ذلك بما طاب له من وسيلة .. فلباه أهل الشام وكتب بيعته إلى الآفاق ، ثم همه أمر الحجاز فكتب إلى مروان بن الحكم عامله أن يجمع من قبله لأخذ البيعة منهم ليزيد ، فأبى مروان وأغرى رؤوس قريش بالإباء ، لأنه كان يتطلع إلى الخلافة بعد معاوية ويحسبه أقدر عليها من يزيد ، لما اشتهر به من نقض وعبث .. فعزله معاوية وولى سعيد بن العاص مكانه ، فلم يجبه أحد إلى ما أراد . فكتب معاوية إلى عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله ابن جعفر ، والحسين بن علىّ ، وأمر عامله سعيدًا أن يوصل كتبه إليهم ويبعث إليه بجواباتها . وقال لسعيد : « فهمت ما ذكرت من إبطاء الناس ، وقد كتبت إلى رؤسائهم كتبًا فسلمها إليهم .. ولتشد عزيمتك وتحسن نيتك ، وعليك بالرفق . وانظر حسينًا خاصة فلا يناله منك مكروه ، فإن له قرابة وحقا عظيمًا لا ينكره مسلم ولا مسلمة .. وهو ليث عرين ، ولست آمنك إن ساورته ألا تقوى عليه » .

* * *

فأعيت سعيد بن العاص كل حيلة فى إقناع وجهاء الناس وعامتهم بهذه البيعة البغيضة ، وخف معاوية إلى مكة ومعه الجند وحقائب الأموال، ودعا بأولئك النفر فقال لهم : « قد علمتم سيرتى فيكم وصلتى لأرحامكم . يزيد أخوكم وابن عمكم ، وأردت أن تقدموا يزيد باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمّرون وتجبون المال وتقسمونه » .

فأجاب عبد الله بن الزبير ، وخيَّره بين أن يصنع كما صنع رسول الله إذ لم يستخلف

أحدًا ، أو كما صنع أبو بكر ، إذ عهد إلى رجل ليس من بنى أبيه ، أو كما صنع عمر إذ جعل الأمر شورى فى ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بنى أبيه .

فقال معاوية مغضبًا : « هل عندك غير هذا ؟ » .

قال : « لا .. » .

والتفت إلى الآخرين يسألهم قائلاً : « فأنتم ؟ » فوافقوا ابن الزبير .

فقال متوعدًا : « أعذر من أنذر ! .. إنى كنت أخطب فيكم فيقوم إلى القائم منكم فيكذبنى على رؤوس الناس فأحمل ذلك وأصفح ، وإنى قائم بمقالة .. فأقسم بالله لئن رد على أحدكم كلمة فى مقامى هذا ، لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يبقين رجل إلا على نفسه ! » .

ثم أمر صاحب حرسه أن يقيم على رأس كل منهم رجلين مع كل واحد منهما سيف ، وقال له : « إن ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب ، فليضرباه بسيفيهما » .

ثم خرج بهم إلى المسجد ورقى المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه وقال :

— هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبرم أمر دونهم ولا يقضى إلا على مشورتهم ، وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوه على اسم الله فبايع الناس .

وهكذا كانت البيعة ليزيد فى الحجاز .

* * *

ومات معاوية وهو يعلم أن بيعة كهذه لا تجوز ولا تؤمن عقباها .. فأوصى ابنه « أنه لا يخاف إلا هؤلاء من قريش : الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله ابن الزبير » . قال : « فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة وإذا لم يبق أحد غيره بايعك . وأما الحسين بن على فلا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه .. فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه ، فإن له رحمًا ماسة وحقا عظيما .

« أما ابن الزبير فإنه خب ضب ، فإذا أمكنته فرصة وثب .. فإن هو فعلها فقدرت

عليه ، فقطعه إربًا إربًا إلا أن يلتمس منك صلحًا ، فإن فعل فاقبل واحقن دماء قومك ما استطعت » .

خلافة يزيد

وآل الأمر على هذا النحو إلى يزيد فى سنة ستين للهجرة ، وهو بين الرابعة والثلاثين والخامسة والثلاثين ، ولكنه دون أنداده فى تجارب الأيام ، وليس حوله من المشيرين والنصحاء أمثال المغيرة ، وزياد ، وعمرو بن العاص ، وغيرهم من القروم الذين كانوا حول أبيه .. فتهيب ما هو مقدم عليه ، وكتب إلى عامله بالمدينة الوليد بن عتبة بن أبى سفيان : « أن خذ حسينًا ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، بالبيعة أخذًا شديدًا ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام » .

فبعث الوليد إلى مروان بن الحكم يستشيره .. وكان مروان يريد الخلافة لنفسه ، ولكنه علم بعد موت معاوية وقيام يزيد أن الأمر اليوم أمر بنى أمية ، فإن خرج منهم فقد خرج منهم أجمعين . فنصح للوليد نصيحة ذات وجهين : ظاهرها الشدة فى الدعوة ليزيد وباطنها السعى إلى الخلاص من يزيد ومنافسيه . فقال : « أرى أن تبعث الساعة إلى هؤلاء النفر فتدعوهم إلى البيعة . أما ابن عمر فلا أراه يرى القتال ، ولكن عليك بالحسين وعبد الله بن الزبير ، فإن بايعا وإلا فاضرب أعناقهما .. » .

وضرب عنق الحسين وابن الزبير معناه الخلاص من أعظم المنافسين ليزيد .. ثم الخلاص من يزيد نفسه بإثارة النفوس وإيغار الصدور عليه ! .

* * *

وقد ذهب رسول الوليد إلى الحسين وابن الزبير ، فوجدهما فى المسجد .. فعلم الحسين ما يراد منه ، وجمع طائفة من مواليه يحملون السلاح ، وقال لهم وهو يدخل بيت الوليد : « إن دعوتكم أو سمعتم صوتى قد علا فاقتحموا علىَّ بأجمعكم ، وإلا فلا تبرحوا حتى أخرج إليكم » ..

فلما عرضوا عليه البيعة ليزيد قال : « أما البيعة فإن مثلى لا يعطى بيعته سرا ، ولا أراك تقنع بها منى سرا » .

قال الوليد : « أجل ! » .

قال الحسين : « فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا معهم فكان الأمر واحدًا » .

ثم انصرف ومروان غاضب صامت لا يتكلم .. وما هو إلا أن توارى الحسين حتى صاح بالوليد : « عصيتنى والله ! لا قدرت منه على مثلها أبدًا حتى تكثر القتلى بينكم وبينه » .

فأنكر الوليد لجاجته وقال له : « أتشير علىَّ بقتل الحسين ! والله إن الذى يحاسب بدم الحسين يوم القيامة لخفيف الميزان عند الله » .

* * *

وهكذا انتهت المنافسة بين بنى أمية وبنى هاشم إلى مفترق طريق لا سبيل فيه إلى توفيق ، و لم تنقطع قط سلسلة هذه المنافسة منذ أجيال وإن غلبها الإسلام فى عهد النبوة ، وفى عهد الصديق والفاروق .

وكفى بالإسلام فضلاً فى هذا المجال أنه غلب العصبية بالعقيدة ، فجعلها تابعة لها غير قادرة على الجهر بمخالفتها ! ولكن العصبية المكبوحة عصبية موجودة غير معدومة .

* * *

وكثيرًا ما يفلت المكبوح من عنانه ، وإن طالت به الرياضة والانقياد .

فاتفق كثيرًا فى مساجلات شتى بين كبار الصحابة ، أن بدرت إلى اللسان بوادر العصبية والنبى ﷺ حاضر ، فلما أشار عمر بقتل أبى سفيان — على خلاف رأى العباس فى استبقائه وتألفه — قال العباس : « مهلاً يا عمر ! فو الله لو كان من رجال بنى عدى بن كعب ما قلت مثل هذا .. ولكنك قد عرفت أنه من رجال عبد مناف » .

ولما توثب أسيد بن حضير لضرب أعناق المفترين على السيدة عائشة ، ثار به سعد بن عبادة وصاح به : « كذبت لعمر الله ! ما تضرب أعناقهم . أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك — الأوس — ما قلت هذا .. » .

وقد مات الفاروق وهو يوصى عليًّا فيقول : « اتق الله يا علىّ إن وليت شيئًا ، فلا تحملن بنى هاشم على رقاب المسلمين » .. ثم يلتفت إلى عثمان فيقول له : « اتق الله إن وليت شيئًا فلا تحملن بنى أمية على رقاب المسلمين » .

* * *

ومن عجائب الحيل التى تحاول بها الغرائز الإنسانية أن تبقى وجودها وتمضى لطيّتها ، أن بنى أمية انتفعوا من حرب الإسلام للعصبية فى تعزيز عصبيتهم ، فجعلوها حجة على بنى هاشم أن النبوة لا تحصر الأمر فيهم وأن الأنبياء لا يورثون .. وإذا نهضت هذه الحجة على بنى هاشم ، فبنو أمية أقوى المنتفعين بها من بطون عبد مناف !

وقد أوجبت الضرورة قبول المجاملة فى هذه المنافسات فترة من الزمن على عهد معاوية ابن أبى سفيان ، فكان يلطف القول إلى أبناء علىّ ويواليهم بالهدايا والمجاملات ، ولكنه كان مضطرًا إلى مجاملة آل علىّ ومضطرًا إلى تنقص علىّ والغض من دعواه . فكان بذلك مضطرًا إلى النقيضين فى آن .

إنه ملك وبايع بالملك ليزيد وهو يعلم أنه غالب بالسلاح والمال ، مغلوب بالسمعة والشعور . فكان الناس يفضلون عليًّا عليه وهو لا يملك أن يفاضله بقرابة النبى ، ولا بالسابقة إلى الإسلام ، ولا بالعراقة فى قريش . فتجنب النسب والسابقة ، وعمد إلى شخص علىّ فى منازعات الخلافة ، فاتهمه بتفرقة الكلمة بين المسلمين ، وأمر بلعنه على المنابر عسى أن يضعف من تلك المكانة التى هو مغلوب بها ويستبقى الدولة التى هو بها غالب .. ولج فى ذلك حتى قتل أناسًا لم يطيعوه فى لعن علىّ واتهامه ، وأبى أن يجيب الحسن بن علىّ إلى شرطه الذى أراد به أن يرفع اللعن عن أبيه .. وكان معاوية على حصافته يجهل أنه قد أضاع سمعة وشعورًا من حيث حارب عليًّا فى مقام السمعة والشعور .

وإن مجاملة كهذه التى تحيى الرجل وتغض من قدر أبيه لهى أضعف مجاملة بين متلاقيين ، فضلاً عن خصمين متنافسين قد آل بهما التنافس بعد أجيال إلى مفترق الطريق .

زواج الحسين

وكأنما كانت هذه المنافسة المؤصلة الجذور لا تكفى قصاص التاريخ ، فأضاف إليها أناس من ثقاتهم قصة منافسة أخرى هى وحدها كافية للنفرة بين قلبين متآلفين . وهى قصة زواج الحسين رضى الله عنه بزينب بنت إسحق التى كان يهواها يزيد هوى أدنفه وأعياه .

وكانت زينب هذه على ما قيل أشهر فتيات زمانها بالجمال ، وكانت زوجة لعبد الله ابن سلام القرشى والى العراق من قبل معاوية .

فمرض يزيد بحبها وأخفى سره عن أهله ، حتى استخرجه منه بعض خصيان القصر الذين يعينونه على شهواته .. فلما علم أبوه سر مرضه أرسل فى طلب عبد الله بن سلام واستدعى إليه أبا هريرة وأبا الدرداء ، فقال لهما إن له ابنة يريد زواجها ولم يرض لها خليلاً غير ابن سلام ، لدينه وفضله وشرفه ورغبة معاوية فى تكريمه وتقريبه . فخدع ابن سلام بما بلغه وفاتح معاوية فى خطبة ابنته ، فوكّل معاوية الأمر إلى أبى هريرة ليبلّغها ويستمع جوابها . فكان جوابها المتفق عليه بينها وبين أبيها أنها لا تكره ما اختاروه ، ولكنها تخشى الضر وتشفق أن يسوقها إلى ما يغضب الله . فطلق ابن سلام زوجته واستنجز معاوية وعده .. فإذا هو يلويه به ويقول بلسان ابنته إنها توجس من رجل يطلّق زوجته وهى ابنة عمه وأجمل نساء عصره .

وقيل إن الحسين سمع بهذه المكيدة ، فسأل أبا هريرة أن يذكره عند زينب خاطبًا .. فصدع أبو هريرة بأمره وقال لزينب : « إنك لا تعدمين طلابًا خيرًا من عبد الله بن سلام » .

قالت : « من ؟ » قال : « يزيد بن معاوية والحسين بن علىّ ، وهما معروفان لديك بأحسن ما تبتغينه فى الرجال » .

واستشارته فى اختيار أيهما ، فقال : « لا أختار فم أحد على فم قبّله رسول الله ، تضعين شفتيك فى موضع شفتيه » .

فقالت : « لا أختار على الحسين بن علىّ أحدًا وهو ريحانة النبى وسيد شباب أهل الجنة » .

فقال معاوية متغيظًا :

أنعمـــــى أم خالــــد رب ساع لقاعـــــد

ولم يلبث الحسين أن ردها إلى زوجها قائلاً : « ما أدخلتها فى بيتى وتحت نكاحى رغبة فى مالها ولا جمالها ، ولكن أردت إحلالها لبعلها » .

فإن صحت هذه القصة وهى متواترة فى تواريخ الثقات ، فقد تم بها ما نقص من النفرة والخصومة بين الرجلين ، وكان قيام يزيد على الخلافة يوم فصل فى هذه الخصومة لا يقبل الإرجاء ، وكان بينهما كما أسلفنا مفترق طريق .

الخصمان

مُوازنة

لخص المقريزى المنافسة التى بين الهاشميين والأمويين فى بيتين فقال :

عبد شمس قد أضرمت لبنى هـا
شم حربا يشيب منها الوليد
فابن حرب للمصطفى ، وابن هند
لعلى ، وللحسين يزيد

وسنعرض فى ختام هذا الفصل عرضًا موجزًا لهذه المقابلة المتسلسلة بين أفراد الأسرتين لتحقيق الرأى فيها ، ولكننا نجتزىء هنا بالمقابلة بين الخصمين المتصاولين من هاشم وعبد شمس فى شخصى الحسين ويزيد .. فأيًّا كان الميزان الذى يوزن به كل من الرجلين ، فلا مراء البتة فى خير الرجلين .

وما من رجل فاز حيث ينبغى أن يخيب ، كما قد فاز يزيد بن معاوية فى حربه للحسين ، وما اختصم رجلان كان أحدهما أوضح حقًّا وأظهر فضلاً من الحسين فى خصومته ليزيد بن معاوية .

والموازنة بين هذين الخصمين هى فى بعض وجوهها موازنة بين الهاشميين والأمويين من بداءة الخلاف بين الأسرتين ، وهى موازنة حفظت كفتيها على وضعهما زهاء سبعة قرون ، فلم يظهر فى هذه القرون أموى قح ، إلا ظهرت فيه الخصال الأموية المعهودة فى القبيلة بأسرها ، ولم يظهر فى خلالها هاشمى قح ، إلا رأيت فيه ملامح من تلك الخصال التى بلغت مثلها الأعلى فى محمد بن عبد الله ﷺ .

والهاشميون والأمويون من أرومة واحدة ترتفع إلى عبد مناف ، ثم إلى قريش فى أصلها الأصيل .

ولكن الأسرتين تختلفان فى الأخلاق والأمزجة وإن اتحدتا فى الأرومة .. فبنو هاشم فى الأغلب مثاليون أريحيون ولا سيما أبناء فاطمة الزهراء ، وبنو أمية فى الأغلب الأعم عمليون نفعيون ، ولا سيما الأصلاء منهم فى عبد شمس من الآباء والأمهات .

وتفسير هذا الاختلاف مع اتحاد الأرومة غير عسير .. فإن الأخوين فى البيت الواحد قد يختلفان فى الأخلاق والأعمال ، كما يختلف الغريبان من أمتين بعيدتين ، تبعًا لاختلاف سلسلة الميراث فى الأصول والفروع ، على ذلك النحو الذى يأذن أحيانًا باختلاف الألوان والملامح فى نسل واحد ، تأخذ كل شعبة منه بناحية من نواحى الوراثة .

* * *

ومن الثابت الذى لا نزاع فيه أن عبد المطلب وأمية كانا يختلفان حتى فى الصورة والقامة والملامح .

وفى نسل أمية شبهة نشير إليها ولا نزيد ، فهى محل الإشارة والمراجعة فى هذا المقام .

دخل دغفل النسابة على معاوية فقال له : « من رأيت من علية قريش ؟ » . فقال : « رأيت عبد المطلب بن هاشم وأمية بن عبد شمس » . فقال : « صفهما لى » . فقال : « كان عبد المطلب أبيض ، مديد القامة ، حسن الوجه ، فى جبينه نور النبوة وعز الملك ، يطيف به عشرة من بنيه كأنهم أسد غاب » . قال : « فصف أمية » . قال : « رأيته شيخًا قصيرًا ، نحيف الجسم ضريرًا ، يقوده عبده ذكوان » . فقال معاوية : « مه ! .. ذاك ابنه أبو عمرو » . فقال دغفل : « ذلك شىء قلتموه بعد وأحدثتموه .. وأما الذى عرفت فهو الذى أخبرتك به » .

وذكر الهيثم بن عدى فى كتاب المثالب أن أبا عمرو بن أمية كان عبدًا لأمية اسمه ذكوان فاستلحقه ، ونقل أبو الفرج الأصبهانى — وهو من الأمويين — ما تقدم فلم يعرض له بتفنيد .

ووضح الفرق بين بنى هاشم وبنى أمية فى الخلائق والمناقب فى الجاهلية قبل الإسلام . فكان الهاشميون سراعًا إلى النجدة ونصرة الحق والتعاون عليه .. ولم يكن بنو أمية كذلك .. فتخلفوا عن حلف الفضول الذى نهض به بنو هاشم وحلفاؤهم ، وهو الحلف

الذى اتفق فيه نخبة من رؤساء قريش « ليكونن مع المظلوم حتى يؤدوا إليه حقه ، وليأخذن أنفسهم بالتآسى فى المعاش والتساهم فى المال ، وليمنعن القوى من ظلم الضعيف والقاطن من عنف الغريب » واتفقوا على هذا الحلف لأن العاص بن وائل اشترى بضاعة من رجل زبيدى ولواه بثمنها ، فنصروا الرجل الغريب على القرشى وأعطوه حقه .

ولما تنافر عبد المطلب وحرب بن أمية إلى نفيل بن عدى ، قضى لعبد المطلب وقال لحرب :

أبوك معاهر وأبوه عف وذاد الفيل عن بلد الحرام

يشير إلى فيل أبرهة الذى أغار به على مكة . وقال عن أمية أنه « معاهر » لأنه كان يتعرض للنساء ، وقد ضرب بالسيف مرة لأنه تعرض لامرأة من بنى زهرة ، وكان له تصرف عجيب فى علاقات الزواج والبنوة . فاستلحق عبده ذكوان وزوجه امرأته فى حياته ، ولم يعرف سيد من سادات الجاهلية قط صنع هذا الصنيع .

اختلاف النشأة

وندع اختلاف الطبائع ومغامز النسب ثم ننظر فى اختلاف النشأة والعادة — مع اختلاف الخلقة الجسدية — فنرى أنهما صالحتان لتفسير الفارق بين أبناء هاشم وأبناء عبد شمس بعد جيلين أو ثلاثة أجيال ..

فقد كان بنو هاشم يعملون فى الرئاسة الدينية . وبنو عبد شمس يعملون فى التجارة أو الرئاسة السياسية . وهما ما هما فى الجاهلية من الربا والمماكسة والغبن والتطفيف والتزييف . فلا عجب أن يختلفا هذا الاختلاف بين أخلاق الصراحة وأخلاق المساومة ، وبين وسائل الإيمان ووسائل الحيلة على النجاح .

ويتفق كثيرًا فى الكهانات الوثنية أن يتصف رؤساء الأديان بصفات الرياء والدهاء والعبث بأحلام الأغرار والجهلاء ، ولكنهم يتصفون بهذه الصفة حين يعلمون الكذب فيما يمارسون من شعائر الكهانة ومظاهر العبادة ، ويتخذونها صناعة يروجونها لمنفعتهم أو لما يقدرون فيها من منفعة أولئك الأغرار والجهلاء .

أما أبناء هاشم فلم يكونوا من طراز أولئك الكهان المشعوذين ، ولا كانوا من المحتالين بالكهانة على خداع أنفسهم وخداع المؤمنين والمصدقين بل كانوا يؤمنون بالبيت ورب البيت ، وبلغ من إيمانهم بدينهم أن عبد المطلب — جد النبى ﷺ — أوشك أن يذبح ابنه فدية لرب البيت لأنه نذر « لئن عاش له عشرة بنين لينحرن أحدهم عند الكعبة » ، ولم يتحلل من نذره حتى استوثق من كلام العرافة بعد رمى القداح ثلاث مرات .

* * *

والأخلاق المثالية توائم الرئاسة الدينية التى يدين أصحابها بما يدعون إليه .. فإن لم تكن فى بنى هاشم موروثة من معدن أصيل فى الأسرة ، فهى أشبه بسمت الرئاسة الدينية والعقيدة المتمكنة والشعائر المتبعة جيلاً بعد جيل ، وهى أخلق أن تزداد فى الأسرة تمكنًا بعد ظهور النبوة فيها ، وأن يتلقاها بالوراثة والقدوة أسباط النبى وأقرب الناس إليه .

وإنك لتنحدر مع أعقاب الذرية فى الطالبيين — أبناء على والزهراء — مائة سنة وأربعمائة سنة ، ثم يبرز لك رجل من رجالها فيخيل إليك أن هذا الزمن الطويل لم يبعد قط بين الفرع وأصله فى الخصال والعادات .. كأنما هو بعد أيام معدودات لا بعد المئات وراء المئات من السنين ، ولا تلبث أن تهتف عجبًا : إن هذه لصفات علوية لا شك فيها ، لأنك تسمع الرجل منهم يتكلم ويجيب من يكلمه ، وتراه يعمل ويجزى من عمل له ، فلا تخطىء فى كلامه ولا فى عمله تلك الشجاعة والصراحة ، ولا ذلك الذكاء والبلاغ المسكت ، ولا تلك اللوازم التى اشتهر بها علىّ وآله وتجمعها فى كلمتين اثنتين تدلان عليها أو فى دلالة ، وهما : « الفروسية والرياضة » .

طبع صريح ، ولسان فصيح ، ومتانة فى الأسر يستوى فيها الخلق والخلق ، ونخوة لا تبالى ما يفوتها من النفع إذا هى استقامت على سنة المروءة والإباء .

فمن يحيى بن عمر ، إلى على بن أبى طالب ، خمسة أو ستة أجيال .. ولكن يحيى ابن عمر يوصف لك ، فإذا هو صورة مصغرة من صور على بن أبى اطالب على نحو من الأنحاء ، فمن أوصافه التى وصفه بها الكاتب الأموى أبو الفرج الأصبهانى أنه كان

« رجلاً فارسًا ، شجاعًا ، شديد البدن ، مجتمع القلب بعيدًا عن رهق الشباب وما يعاب به مثله » .

ومما روى عنه « أنه كان مقيمًا ببغداد ، وكان له عمود حديد ثقيل يكون معه فى منزله ، وربما سخط على العبد أو الأمة من حشمه .. فيلوى العمود فى عنقه فلا يقدر أحد أن يحله عنه حتى يحله يحيى رضى الله عنه » .

ولما ضايقه الأمراء وضنوا عليه بجرايته فى بيت المال ، كان يجوع ويعرض عليه الطعام فيأباه ويقول : « إن عشنا أكلنا » .

ثم ثار وبلغت أنباء ثورته بغداد ، فأقبلت عليهم الجموع المحشودة لقتاله ، وأسرع إليه بعض الأعراب فصاح به : « أيها الرجل ، أنت مخدوع .. هذه الخيل قد أقبلت » .. فوثب إلى متن فرسه فجال به ، وحمل على قائد القوم فضربه ضربة بسيفه على وجهه .. فولّى منهزمًا وتبعه أصحابه ، فجلس معهم ساعة وهو لا يبالى ما يكون .

* * *

ولما تكاثرت عليه الجموع وقتل بعد ذلك ، اتهم الناس صاحبه الهيضم العجلى أنه كان مدسوسًا عليه ، وأنه غرر به لينكص عنه عند احتدام القتال . فأقسم الرجل بالطلاق أنه لم يكن له فى الهزيمة صنع مدبر .. قال : « وإنما كان يحيى يحمل وحده ويرجع ، فنهيته عن ذلك فلم يقبل .. وحمل مرة كما كان يفعل ، فبصرت عينى به وقد صرع فى وسط عسكرهم ، فلما رأيته قتل انصرفت بأصحابى » .

ويحيى الشهيد هذا هو الذى قال ابن الرومى جيميته المشهورة فى وصف قتاله ومقتله ، وهى طويلة منها قوله يخاطب أمراء زمانه :

فلو شهد الهيجا بقلب أبيكم
غداة التقى الجمعان والخيل تمعج[1]
لأعطى يد العانى أو ارتد هاربا
كما ارتد بالقاع الظليم[2] المهيج

(١) معج الفرس أسرع سيره فى سهولة .
(٢) ذكر النعام .

ولكنـــه مـــا زال يـــغشى بنحـــره
شبا الحرب حتى قال ذو الجهل : أهوج
وحـــاشى لـــه مـــن تلكـــم غير أنـــه
أبى خطـــة الأمـــر الـــذى هـــو أسمج
وأين بـه عـن ذاك ؟ .. لا أين — أنـه
إليـــــه بعرقيـــــه الزكـــــيين محرج
كـــأنى بـــه كالليـــث يحمـــى عرينـــه
وأشبالـــــه لا يزدهيـــــه المهجهـــــج
كـــدأب علـــىّ فى المواطـــن قبلـــه
— أبى حسن — والغصن من حيث يخرج
كـــأنى أراه إذ هـــوى عـــن جـــواده
وعفـــــر بالتـــــرب الجبين المشجـــــج
فحب بـه جسمًـا إلى الأرض إذ هـــوى
وحـب بـــه روحًـــا إلى الله تعـــــرج

* * *

وقد أصاب ابن الرومى الوصف والتعليل ، فما كان كل من يحيى ولا أسلافه من قبله إلا عليًّا صغيرًا يتأسى بعلىّ الكبير ، أو غصنًا زاكيًا يخرج من دوحته الكبرى ، « والغصن من حيث يخرج » كما قال ، ولولا قوة هذه الطبائع فى أساس الأسرة الطالبية لما انحدرت على هذه الصورة الواضحة بعد ستة أجيال . فنحن نرى يحيى بن عمر بعد هذه الأجيال — وهو بعموده الحديدى وجرأته التى لا تتزعزع ويقينه الذى لا يلوى به الإغراء والوعيد — كأنما هو نسخة أخرى من جده الكبير الذى يحمل باب خيبر وقد أعيا حمله الرجال . وينهد لعمرو بن ود وقد تهيبه مئات الأبطال ، ويتوسط الصفوف حاسرًا وقد برزوا له بشكة القتال ودروع النزال .

ولم يكن لبنى أمية — على نقيض هذا — نصيب ملحوظ من الخلائق المثالية والشمائل الدينية . ولا كان ظهور النبوة فى أسرة منافسة لأسرتهم من شأنه أن يعزز مناقبها فيهم

كما يعتز بها أبناء بيتها وفروع أرومتها بل لعله كان من شأنه أن يجنح بهم من طرف خفى إلى صفات تقابل تلك الصفات ، ومزايا تعوض لهم ما فاتهم من تلك المزايا .. فتمكنت فيهم قبل ظهور النبوة وبعدها بخلائقهم العملية التى دربتهم عليها المساومات التجارية وراضهم عليها مراس المطامع السياسية . فاشتهر أناس من رؤوسهم بمحاسن هذه الخلائق ومعائبها على السواء ، وشاعت عنهم صفات الحلم والصبر والحنكة والدهاء كما شاعت عنهم صفات المراوغة والجشع والإقبال على الترف ومناعم الحياة .

* * *

ولقد تقابل الحسين بن على ويزيد بن معاوية فى تمثيل الأسرتين ، كما تقابلا فى كثير من الخلائق والحظوظ .. ولكنهما تفاوتا فى تمثيل أسرتيهما كما تفاوتا فى غير ذلك من وجوه الخلاف بينهما . فكان الحسين بن على نموذجًا لأفضل المزايا الهاشمية ولم يكن يزيد بن معاوية نموذجًا لأفضل المزايا الأموية ، بل كان فيه الكثير من عيوب أسرته ولم يكن له من مناقبها المحمودة إلا القليل .

وليس بنا هنا أن نفصل القول فى أحوال كل من الرجلين وخصائص كل من النموذجين ، ولكننا نجتزىء منهما بما يملأ الكفتين فى هذا الميزان ، وهو ميزان الأريحية والنفعية فى حادث كبير من حوادث التاريخ العربى يندر نظيره فى جميع التواريخ .

مكانة الحسين

وإذا كانت المعركة كلها هى معركة الأريحية والنفعية ، فالمزية الأولى التى ينبغى توكيدها هنا للحُسين بن علىّ رضى الله عنه هى مزية نسبه الشريف ومكانه من محبة النبى ﷺ .

إن المؤرخ الذى يكتب هذا الحادث قد يكون عربيًا مسلمًا أو يكون من غير العرب والمسلمين ، وقد يؤمن بمحمد أو ينكر محمدًا وغيره من الأنبياء .. ولكنه يخطىء دلالة الحوادث التاريخية إذا استخف بهذه المزية التى قلنا إنها أحق مزايا الحسين بالتوكيد فى الصراع بينه وبين يزيد .

فليس المهم أن يؤمن المؤرخون بقيمة ذلك النسب الشريف فى نفوسهم أو قيمته فى علوم العلماء وأفكار المفكرين ، ولكنما المهم أن أتباع يزيد كانوا يؤمنون بحق ذلك النسب الشريف فى الرعاية والمحبة ، وأنهم مع هذا غلبتهم منافعهم على شعورهم فكانوا من حزب يزيد ولم يكونوا من حزب الحسين .

فلولا هذه المزية فى الحسين لما وضح الصراع بين الأريحية والنفعية عند الفريقين ، ولا كان المصطرعون هنا وهناك من مزاجين مختلفين ، ولا كان للمعركة كلها تلك الدلالة التى كشفت النفس الإنسانية فى جانبين منها قويين ، يتنازعان حوادث الأمم والأفراد من زمان بعيد ، وسيظلان على نزاعهما هذا إلى زمان بعيد .

* * *

ولقد كان الحسين بن علىّ بهذه المزية أحب إنسان إلى قلوب المسلمين ، وأجدر إنسان أن تنعطف إليه القلوب .

كان النبى ﷺ هو الذى سماه ، وسمى من قبله أخاه .. قال علىّ رضى الله عنه : « لما ولد الحسن سميته حربًا فجاء رسول الله فقال : (أرونى ابنى ما سميتموه ؟) . قلت : (حرب !) . فقال : (بل هو حسن) . فلما ولد الحسين سميته حربًا ، فجاء رسول الله فقال : (أرونى ابنى .. ما سميتموه ؟) . قلت : (حرب !) . فقال : (بل هو حسين) .. » .

وذهب إلى الحسين وإخوته كل ما فى فؤاد النبى ﷺ من محبة البنين ، وهو مشوق الفؤاد إلى الذرية من نسله . فكان عليه السلام لا يطيق أذاهما ، ولا يحب أن يستمع إلى بكاء منهما فى طفولتهما ، على كثرة ما يبكى الأطفال الصغار . وخرج من بيت عائشة يومًا ، فمر على بيت فاطمة فسمع حسينًا يبكى ، فقال : « ألم تعلمى أن بكاءه يؤذينى ؟ » .

وكان يقول لها : « ادعى إلى ابنىَّ » .. فيشمهما ويضمهما إليه ، ولا يبرح حتى يضحكهما ويتركهما ضاحكين .. وروى أبو هريرة أنه كان عليه السلام يدلع لسانه للحسين ، فيرى الصبى حمرة لسانه فيهش إليه ، وكان عيينة بن بدر ، شهده فى بعض

هذه المجالس فقال متعجبًا : « يصنع هذا بهذا ؟ فو الله إن لى الولد وما قبلته قط ! » .
قال عليه السلام : « من لا يرحم ، لا يُرحم ! » .

* * *

وخرج ليلة فى إحدى صلاتى العشاء وهو حامل حسنًا أو حسينًا ، فوضعه ثم كبر للصلاة فأطال سجدة الصلاة . قال راوى الحديث : « فرفعت رأسى فإذا الصبى على ظهر رسول الله وهو ساجد فرجعت إلى سجودى ، فلما قضى الصلاة قيل يا رسول الله : إنك سجدت بين ظهرى صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى إليك .. » قال : « كل ذلك لم يكن .. ولكن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله .. » .

وقام عليه السلام يخطب المسلمين ، فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران .. فنزل عليه السلام من المنبر ، فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال : « صدق الله ! .. ﴿إنما أموَالُكُمْ وأولادُكُمْ فِتْنَة﴾.. نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما » .

* * *

ولا يوجد مسلم فى العصر القديم أو العصر الحديث يحب نبيه كما يحب المؤمنون أنبياءهم ، ثم يصغر عنده حساب هذا الحنان الذى غمر به قلبه الكريم سبطيه وأحب الناس إليه . فبهذا الحنان النبوى قد أصبح الحسين فى عداد تلك الشخوص الرمزية التى تتخذ منها الأمم والملل عنوانًا للحب ، أو عنوانًا للفخر ، أو عنوانًا للألم والفداء .. فإذا بها محبوب كل فرد ومفخرته ، وموضع عطفه وإشفاقه ، كأنما تمت إليه وحده بصلة القرابة أو بصلة المودة .

وقد بلغ الحسين بهذا الحنان — مع الزمن — مبلغه من تلك المكانة الرمزية فأوشك بعض واصفيه أن يلحقه فى حمله وولادته ورضاعه بمواليد المعجزات . فقال بعضهم : « لم يولد مولود لستة أشهر وعاش إلا الحسين وعيسى بن مريم » . وقال آخرون :إنه رضى الله عنه لم ترضعه أمه و لم ترضعه أنثى « واعتلت فاطمة لما ولدت الحسين وجف

لبنها فطلب رسول الله مرضعة فلم يجد ، فكان يأتيه فيلقمه إبهامه فيمصه ويجعل الله فى إبهام رسوله رزقًا يغذيه ، ففعل ذلك أربعين يومًا وليلة ، فأنبت الله سبحانه وتعالى لحمه من لحم رسول الله .. » .

ورُوى عنه غير ذلك كثير من الأساطير التى تحيط بها الأمم تلك الشخوص الرمزية التى تعزها وتغليها فتلتمس لها مولدًا غير المولد المألوف ، والنشأة المعهودة ، وتلحقها أو توشك أن تلحقها بالخوارق والمعجزات ..

ولقد كانت حقيقة الحسين الشخصية كفؤًا لتلك الصورة الرمزية التى نسجتها حوله الأجيال المتعاقبة قبل أن يرى منه أبناء جيله غير تلك الحقيقة .

فكان ملء العين والقلب فى خلق وخلق ، وفى أدب وسيرة ، وكانت فيه مشابه من جده وأبيه .. إلا أنه كان فى شدته أقرب إلى أبيه . قال رضى الله عنه مشيرًا إلى الحسن : « إن ابنى هذا سيخرج من هذا الأمر ، أشبه أهلى بى الحسين » . واتفق بعض الثقات على أن « الغالب على الحسن الحلم والأناة كالنبى ، وعلى الحسين الشدة كعلىّ » .

صفات الحسين

وقد تعلم فى صباه خير ما يتعلمه أبناء زمانه من فنون العلم والأدب والفروسية ، وإليه يرفع كثير من المتصوفة وحكماء الدين نصوصهم التى يعولون عليها ويردونها إلى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه .

وقد أوتى ملكة الخطابة من طلاقة لسان وحسن بيان وغنة صوت وجمال إيماء . ومن كلامه المرتجل قوله فى توديع أبى ذر وقد أخرجه عثمان من المدينة بعد أن أخرجه معاوية من الشام : « يا عماه ! إن الله قادر على أن يغير ما قد ترى . والله كل يوم فى شأن : وقد منعك القوم دنياهم ومنعتهم دينك ، وما أغناك عما منعوك وأحوجهم إلى ما منعتهم ، فاسأل الله الصبر والنصر ، واستعذ به من الجشع والجزع ، فإن الصبر من الدين والكرم ، وإن الجشع لا يقدم رزقًا والجزع لا يؤخر أجلاً » .

وكان يومئذ فى نحو الثلاثين من عمره فكأنما أودع هذه الكلمات شعار حياته كاملة منذ أدرك الدنيا إلى أن فارقها فى مصرع كربلاء .

* * *

زوتواترت الروايات بقوله الشعر فى أغراض الحكمة وبعض المناسبات البيتية ، ومن ذلك هذه الأبيات :

أغنَ عن المخلوق بالخالق   تغن عن الكاذب والصادق
واسترزق الرحمن من فضله   فليس غير الله من رازق
من ظن أن الناس يغنونه   فليس بالرحمن بالواثق

ومنه هذان البيتان فى زوجته وابنته :

لعمرك إننى لأحب دارا   تكون بها سكينة والرباب
أحبهما وأبذل كل مالى   وليس لعاتب عندى عتاب

وهما – سواء صحت نسبتهما إليه أو لم تصح – معبران عن خلقه فى بيته وبين أهله ، فقد كان من أشد الآباء حدبًا على الأبناء وأشد الأزواج عطفًا على النساء ، ومن وفاء زوجاته بعد مماته أن الرباب هذه التى ذكرت فى البيتين السابقين خطبها أشراف قريش بعد مقتله فقالت : « ما كنت لأتخذ حما بعد رسول الله » .. وبقيت سنة لا يظلها سقف حتى فنيت وماتت ، وهو لا تفتر عن بكائه والحزن عليه .

خلق كريم

وقد سنَّ الحسين لمن بعده سنّة فى آداب الأسرة تليق بالبيت الذى نشأ فيه ووكل إليه أن يرعى له حقه ويوجب على الناس مهابته وتوقيره ، فهو على فضله وذكائه وشجاعته ورجحانه على أخيه الحسن فى مناقب كثيرة ومآثر عدة كان يستمع إلى رأى الحسن ولا يسوءه بالمراجعة أو المخالفة . فلما هم الحسن بالتسليم لمعاوية كان ذلك على غير رضى من الحسين . فلم يوافقه وأشار عليه بالقتال ، فغضب الحسن وقال له : « والله لقد هممت أن أسجنك فى بيت وأطين عليك بابه ، حتى أقضى بشأنى هذا وأفرغ منه ثم أخرجك .. » .

فلم يراجعه الحسين بعدها وآثر الطاعة والسكوت .

ومن رعايته لسنن الأسرة ووصايا الأبوة أنه ركبه دين فساومه معاوية بمائتى ألف دينار أو بمبلغ جسيم من المال على عين « أبى نيزر » فأبى أن يبيعها مع حاجته إلى بعض ما عرض عليه — لأن أباه تصدق بمائها لفقراء المدينة ، ولو أنه باعها لوقفها معاوية على أولئك الفقراء .

وقد أخذ نفسه بسمت الوقار فى رعاية أسرته ورعاية الناس عامة .. فهابه الناس وعرف معاوية عنه هذه المهابة فوصفه لرجل من قريش ذاهب إلى المدينة فقال : « إذا دخلت مسجد رسول الله فرأيت حلقة فيها قوم كأن على رؤوسهم الطير ، فتلك حلقة أبى عبد الله مؤتزرًا إلى أنصاف ساقيه .. » .

ولم يذكر عنه قط أنه كان يواجه الناس بتخطئة وهو يعلمهم ويبصرهم بشئون دينهم ، إلا أن تكون مكابرة أو لجاجة فله فى جواب ذلك أشباه تلك القوارص التى كانت تؤثر عن أبيه .

وما لم تكن مكابرة أو لجاجة فهو يحتال على تصحيح الخطأ حيلة لا غضاضة فيها على المخطئين .

فمن آدابه وآداب أخيه فى ذلك أنهما رأيا أعرابيًا يخفف الوضوء والصلاة فلم يشاءا أن يجبهاه بغلطه وقالا له : « نحن شابان وأنت شيخ ربما تكون أعلم بأمر الوضوء والصلاة منا ، فنتوضأ ونصلى عندك ، فإن كان عندنا قصور تعلمنا » . فتنبه الشيخ إلى غلطه دون أن يأنف من تنبيههما إليه . ومر يومًا بمساكين يأكلون فدعوه إلى الطعام على عادة العرب ، فنزل وأكل معهم ثم قال لهم : « قد أجبتكم فأجيبونى » ودعاهم إلى الغداء فى بيته .

* * *

ورويت الغرائب فى اختبار حذقه بالفقه واللغة كما رويت أمثال هذه الغرائب فى امتحان قدرة أبيه عليهما السلام .. فقيل إن أعرابيًا دخل المسجد الحرام فوقف على

الحسن رضى الله عنه وحوله حلقة من مريديه فسأل عنه ، فقال لما عرفوه به : « إياه أردت .. جئت لأطارحه الكلام وأسأله عن عويص العربية » . فقال له بعض جلسائه : « إن كنت جئت لهذا فابدأ بذلك الشاب » . وأومأ إلى الحسين عليه السلام ، فلما سلم على الحسين وسأله عن حاجته قال : « إنى جئتك من الهرقل والجعلل والأيتم والهمهم » فتبسم الحسين وقال :

— يا أعرابى ! لقد تكلمت بكلام ما يعقله إلا العالمون .

فأجابه الأعرابى قائلاً يريد الإغراب : وأقول أكثر من هذا ، فهل أنت مجيبى على قدر كلامى ؟ ثم أذن له الحسين فأنشد أبياتاً تسعة ، منها :

هفا قلبى إلى اللهو وقد ودع شرخيه

فأجابه الحسين مرتجلاً بتسعة أبيات فى معناها ومن وزنها ، يقول منها :

فما رسم شجانى قد محت آيات رسميه
سفور درجت ذيلين فى بوغاء قاعيه
هتوف مرجف تترى على تلبيد ثوبيه

إلى آخر الأبيات .. ثم فسر له ما أراد من الهرقل وهو ملك الروم ، والجعلل وهو قصار النخل ، والأيتم وهو بعض النبات ، والهمهم وهو القليب الغزير الماء ، وفى هذه الكلمات أوصاف البلاد التى جاء منها وإشارة إليها .

فقال الأعرابى : « ما رأيت كاليوم أحسن من هذا الغلام كلامًا ، وأذرب لسانًا ، ولا أفصح منه منطقًا » .

وتلك رواية من روايات على منوالها ، إن لم تنبىء بما وقع فهى منبئة بما تداوله الناس من شهرة الحسين فى صباه الباكر بالعلم والفصاحة ..

ولخبرته بالكلام وشهرته بالفصاحة ، كان الشعراء يرتادونه وبهم من الطمع فى إصغائه أكبر من طمعهم فى عطائه .. ولكنه على هذا كان يجرى معهم على شرعة ذوى الأقدار والأخطار من أنداده ، فيبذل لهم الجوائز ما وسعه البذل ويؤثرهم على نفسه فى خصاصة

الحال . وقد لامه أخوه الحسن فى ذلك فكتب إليه « إن خير المال ما وقى به العرض » إلا أنه فى الواقع لم يكن يعطى لوقاية العرض وكفى ، ولكنه كان يعطى من قصده من ذوى الحاجات ولا يخيب رجاء لمن استعان به على مروءة .

وفاء وشجاعة

وقد اشتهر مع الجود بصفتين من أكرم الصفات الإنسانية وأليقهما ببيته وشرفه ، وهما الوفاء والشجاعة .

فمن وفائه أنه أبى الخروج على معاوية بعد وفاة أخيه الحسن لأنه عاهد معاوية على المسالمة ، وقال لأنصاره الذين حرضوه على خلع معاوية أن بينه وبين الرجل عهدًا وعقدًا لا يجوز له نقضه حتى تمضى المدة ، وكان معاوية يعلم وفاءه وجوده معًا ، فقال لصحبه يومًا وقد أرسل الهدايا إلى وجوه المدينة من كسى وطيب وصلات : « إن شئتم أنبأناكم بما يكون من القوم .. أما الحسن فلعله ينيل نساءه شيئًا من الطيب وينهب ما بقى من حضره ولا ينتظر غائبًا ، وأما الحسين فيبدأ بأيتام من قتل مع أبيه بصفين فإن بقى شىء نحر به الجزر وسقى به اللبن .. » .

وشجاعة الحسين صفة لا تستغرب منه لأنها « الشىء من معدنه » كما قيل . وهى فضيلة ورثها عن الآباء وأورثها الأبناء بعده ، وقد شهد الحروب فى أفريقية الشمالية وطبرستان والقسطنطينية ، وحضر مع أبيه وقائعه جميعًا من الجمل إلى صفين . وليس فى بنى الإنسان من هو أشجع قلبًا ممن أقدم على ما أقدم عليه الحسين فى يوم كربلاء .

وقد تربى للشجاعة كما تلقاها فى الدم بالوراثة ، فتعلم فنون الفروسية كركوب الخيل والمصارعة والعدو من صباه ولم تفته ألعاب الرياضة التى تتم بها مرانة الجسم على الحركة والنشاط .. ومنها لعبة تشبه « الجولف » عند الأوروبيين كانوا يسمونها المداحى : جمع مدحاة ، وهى أحجار مثل القرصة يحفرون فى الأرض حفرة ويرسلون تلك الأحجار ، فمن وقع حجره فى الحفيرة فهو الغالب .

* * *

أما عاداته فى معيشته فكان ملاكها لطف الحس وجمال الذوق والقصد فى تناول كل مباح . كان يحب الطيب والبخور ، ويأنق للزهر والريحان .

وروى أنس بن مالك أنه كان عنده فدخلت عليه جارية بيدها طاقة من ريحان فحيته بها . فقال لها : « أنت حرة لوجه الله تعالى » فسأله أنس متعجبًا : « جارية تجيئك بطاقة ريحان فتعتقها ؟! » . قال : « كذا أدبنا الله .. قال تبارك وتعالى :﴿وإذا حُيِّيتُم بتحِيَّةٍ فحيُّوا بِأَحْسَنَ مِنها أو رُدُّوها﴾.. وكان أحسن منها عتقها » .

وكان يميل للفكاهة ويأنس فى أوقات راحته لأحاديث أشعب وأضاحيكه ، ولكنه على شيوع الترف فى عصره لم يكن يقارب منه إلا ما كان يجمل بمثله .. حتى تحدث المتحدثون أنه لا يعرف رائحة الشراب ..

وكانت له صلوات يؤديها غير الصلوات الخمس ، وأيام من الشهر يصومها غير أيام رمضان ، ولا يفوته الحج عامًا إلا لضرورة .

وقد عاش سبعًا وخمسين سنة بالحساب الهجرى ، وله من الأعداء من يصدقون ويكذبون .. فلم يعبه أحد منهم بمعابة ولم يملك أحد منهم أن ينكر ما ذاع من فضله ، حتى حار معاوية بعيبه حين استعظم جلساؤه خطاب الحسين له . واقترحوا عليه أن يكتب إليه بما يصغره فى نفسه ، فقال إنه كان يجد ما يقوله فى علىّ ، ولكن لا يجد ما يقوله فى حسين .

تلك جملة القول فى سيرة أحد الخصمين ..

خُلُق يزيد

ويقف خصمه أمامه موقف المقابلة والمناقضة لا موقف المقارنة والمعادلة فى معظم خلائقه وعاداته وملكاته وأعماله .

فيزيد بن معاوية عريق النسب فى بنى عبد مناف ثم فى قريش ، ولكن الأصدقاء والخصوم والمادحين والقادحين متفقون على وصف الخلائق التى اشتهر بها أبناء هذا الفرع من عبد مناف . وأشهرها الأثرة ، وأحمد ما يحمد منها أنها تنفع الناس من طريق النفع

لأصحابها . وندر من وجوه الأمويين فى الجاهلية أو الإسلام من اشتهر بخصلة تجلب إلى صاحبها ضررًا أو مشقة فى سبيل نفع الناس .

وبيت أبى سفيان بيت سيادة مرعية لا مراء فيها ..

ولكن الحقيقة التى ينبغى أن نذكرها فى هذا المقام أن معاوية بن أبى سفيان لم يكن ليرث شيئًا من هذه السيادة التى كان قوامها كله وفرة المال ، لأن أبا سفيان على ما يظهر قد أضاع ماله فى حروب الإسلام ولم يكن له من الوفر ما يبقى على كثرة الوارث . وروى أن امرأة استشارت النبى ﷺ فى التزوج بمعاوية فقال لها : « إنه صعلوك ! .. » .

* * *

كذلك ينبغى أن نذكر حقيقة أخرى فى هذا المقام ، وهى أن معاوية لم يكن من كتّاب الوحى كما أشاع خدام دولته بعد صدر الإسلام ، ولكنه كان يكتب للنبى ﷺ فى عامة الحوائج وفى إثبات ما يجبى من الصدقات وما يقسم فى أربابها ، ولم يسمع عن ثقة قط أنه كتب للنبى شيئًا من آيات القرآن الكريم .

وعرفت لمعاوية خصال محمودة من خصال الجد والسيادة كالوقار والحلم والصبر والدهاء ، ولكنه على هذا كان لا يملك حلمه فى فلتات تميد بالمُلك الراسخ ، ومنها قتله حجر بن عدى وستة من أصحابه لأنهم كانوا ينكرون سب علىّ وشيعته ، فما زال بقية حياته يندم على هذه الفعلة ويقول : « ما قتلت أحدًا إلا وأنا أعرف فيم قتلته ما خلا حجرًا فإنى لا أعرف بأى ذنب قتلته .. » .

وأم يزيد هى ميسون بنت بحدل الكلبية من كرائم بنى كلب المعرقات فى النسب ، وهى التى كرهت العيش مع معاوية فى دمشق وقالت تتشوق إلى عيش البادية :

للبس عباءة وتقر عينى ... أحب إلىّ من لبس الشفوف
وبيت تخفق الأرواح فيه ... أحب إلىّ من قصر منيف

ومن هذه الأبيات قولها :

وخرق من بنى عمى فقير أحب إلىّ من علج عنيف ! ..

فأرسلها وابنها يزيد إلى باديتها ، فنشأ يزيد مع أمه بعيدًا عن أبيه ..

* * *

وقد أفاد من هذه النشأة البدوية بعض أشياء تنفع الأقوياء ، ولكنها على ما هو مألوف فى أعقاب السلالات القوية تضيرهم وتجهز على ما بقى من العزيمة فيهم ..

فكان ما استفاده من بادية بنى كليب بلاغة الفصحى ، وحب الصيد ، وركوب الخيل ، ورياضة الحيوانات ولا سيما الكلاب .

وهذه صفات فى الرجل القوى تزينه وتشحذ قواه ، ولكنها فى أعقاب السلالات — أو عكارة البيت كما يقال بين العامة — مدعاة إلى الإغراق فى اللهو والولع بالفراغ لأنها هى عنده كل شيء وليست مددًا لغيرها من كبار الهمم وعظائم الهموم .

وهكذا انقلبت تلك الصفات فى يزيد من المزية إلى النقيصة .. فكان كلفه بالشعر الفصيح مغريًا له بمعاشرة الشعراء والندماء فى مجالس الشراب ، وكان ولعه بالصيد شاغلاً يحجبه عن شواغل الملك والسياسة ، وكانت رياضته للحيوانات مهزلة تلحقه بأصحاب البطالة من القرادين والفهادين ، فكان له قرد يدعوه «أبا قيس» يلبسه الحرير ويطرز لباسه بالذهب والفضة ويحضره مجالس الشراب ، ويركبه أتانًا فى السباق ويحرص على أن يراه سابقًا مجليًا على الجياد ، وفى ذلك يقول يزيد كما جاء فى بعض الروايات :

تمسك أبا قيس بفضل عنانها
فليس عليها إن سقطت ضمان
ألا من رأى القرد الذى سبقت به
جياد أمير المؤمنين أتان

وقد يكون عبد الله بن حنظلة مبالغًا فى المذمة حين قال فيما نسب إليه : « والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء . إن رجلاً ينكح الأمهات

والبنات والأخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة ، والله لو لم يكن معى أحد من الناس لأبليت الله فيه بلاء حسنًا » .

* * *

ولكن الروايات لم تجمع على شيء كإجماعها على إدمانه الخمر ، وشغفه باللذات ، وتوانيه عن العظائم .. وقد مات بذات الجنب وهو لما يتجاوز السابعة والثلاثين ، ولعلها إصابة الكبد من إدمان الشراب والإفراط فى اللذات . ولا يعقل أن يكون هذا كله اختلاقًا واختراعًا من الأعداء لأن الناس لم يختلقوا مثل ذلك على أبيه أو على عمرو ابن العاص ، وهما بغيضان أشد البغض إلى أعداء الأمويين .. ولأن الذين حاولوا ستره من خدام دولته لم يحاولوا الثناء على مناقب فيه تحل عندهم محل مساوئه وعيوبه ، كأن الاجتراء على مثل هذا الثناء من وراء الحسبان .

ولم يكن هذا التخلف فى يزيد من هزال فى البنية أو سقم اعتراه كذلك السقم الذى يعترى أحيانًا بقايا السلالات التى تهم بالانقراض والدثور ، ولكنه كان هزالاً فى الأخلاق وسقمًا فى الطوية .. قعد به عن العظائم مع وثوق بنيانه وضخامة جثمانه واتصافه ببعض الصفات الجسدية التى تزيد فى وجاهة الأمراء كالوسامة وارتفاع القامة . وقد أصيب فى صباه بمرض خطير — وهو الجدرى — بقيت آثاره فى وجهه إلى آخر عمره ، ولكنه مرض كان يشيع فى البادية ولم يكن من دأبه أن يقعد بكل من أصيب به عن الطموح والكفاح .

* * *

وعلى فرط ولعه بالطراد حين يكون الطراد لهوًا وفراغًا ، كانت همته الوانية تفتر به عن الطراد حين تتسابق إليه عزائم الفرسان فى ميادين القتال ، ولو كان دفاعًا عن دينه ودنياه .

فلما سير أبوه جيش سفيان بن عوف إلى القسطنطينية لغزو الروم ودفاعهم عن بلاد الإسلام — أو بلاد الدولة الأموية — تثاقل وتمارض حتى رحل الجيش وشاع بعد ذلك أنه امتحن فى طريقه ببلاء المرض والجوع ، فقال يزيد :

مـــا إن أبـــالى بما لاقت جموعهـــــم
بالفرقدونـــة مـــن حمى ومـــن مـــوم
إذا اتكـــأت على الأنماط مرتفقـــا
بديـــر مـــران عنـــدى أم كلثـــوم

فأقسم أبوه حين بلغه هذان البيتان ليلحقن بالجيش ليدرأ عنه عار النكول والشماتة بجيش المسلمين بعد شيوع مقاله فى خلواته .

* * *

ومن أعجب عجائب المناقضة التى تمت فى كل شىء بين الحسين ويزيد أن يزيد لم يختص بمزية محمودة تقابل نظائرها من مزايا الحسين ، حتى فى تلك الخصال التى تأتى بها المصادفة ولا فضل فيها لأصحابها ومنها مزية السن وسابقة الميلاد .

فلما تنازعا البيعة كان الحسين فى السابعة والخمسين مكتمل القوة ناضج العقل وافى المعرفة بالعلم والتجربة ، وكان يزيد فى نحو الرابعة والثلاثين لم يمارس من شئون الرعاة ولا الرعية ما ينفعه بين هؤلاء أو هؤلاء .

ومزية السن هذه قد يطول فيها الأخذ والرد بين أبناء العصور الحديثة ، ولكنها كانت تقطع القول فى أمة العرب حيث نشأ الأسلاف والأخلاف على طاعة الشيوخ ورعاية الأعمار .. وهذا على أن السابعة والخمسين ليست بالسن التى تعلو بصاحبها فى الكبر حتى تسلبه مزية الفتوة ومضاء العزيمة .

كذلك لا يقال إن « الوراثة المشروعة » فى الممالك كان لها شأن يرجح بيزيد على الحسين فى ميزان العروبة والإسلام . فقد كان توريث معاوية ابنه على غير وصية معروفة من السلف بدعة هرقلية كما سماها المسلمون فى ذلك الزمان ، ولم يكن معقولاً أن العرب فى صدر الإسلام يوجبون طاعة يزيد لأنه ابن معاوية وهم لم يوجبوا طاعة آل النبى فى أمر الخلافة لأنهم قرابة محمد ﷺ .

فقد شاءت عجائب التاريخ إذن أن تقيم بين ذينك الخصمين قضية تتضح فيها النزعة النفعية على نحو لم تتضحه قط فى أمثالها من القضايا ، وقد وجب أن ينخذل يزيد كل

الخذلان لولا النزعة النفعية التى أعانته وهو غير صالح لأن يستعين بها بغير أعوان من بطانته وأهله .. ولئن كان فى تلك النزعة النفعية مسحة تشوبها من غير معدنها الوضيع لتكونن هى عصبية القبيلة من بنى أمية ، وهى هنا نزعة مواربة تعارض الإيمان الصريح ولا تسلم من الختل والتلبيس .

* * *

لهذا شك بعض الناس فى إسلام ذلك الجيل من الأمويين ، وهو شك لا نرتضيه من وجهة الدلائل التاريخية المتفق عليها . فقد يخطر لنا الشك فى صدق دين أبى سفيان لأن أخباره فى الإسلام تحتمل التأويلين ، ولكن معاوية كان يؤدى الفرائض ويتبرك بتراث النبى ويوصى أن تدفن معه أظافره التى حفظها إلى يوم وفاته . وليس بيسير علينا أن نفهم كيف ينشأ معاوية الثانى على تلك التقوى وذلك الصلاح وهو ناشئ فى بيت مدخول الإسلام ، يتصارح أهله أحيانًا بما ينم على الكفر به أو التردد فيه .

إنما هى الأثرة ، ثم الخرق فى السياسة ، ثم التمادى فى الخرق مع استثارة العناد والعداء .. وفى تلك الأثرة ولواحقها ما ينشئ المقابلة من أحد طرفيها فى هذه الخصومة ، ويتم المناظرة فى شتى بواعثها بين ذينك الخصمين الخالدين ، ونعنى بهما هنا المثالية والواقعية ، وما الحسين واليزيد إلا المثالان الشاخصان منهما للعيان .

أعوان الفريقين

رجال المعسكرين

كان الحسين فى طريقه إلى الكوفة – يوم دعاه شيعته إليها – يسأل من يلقاهم عن أحوال الناس فينبئونه عن موقفهم بينه وبين بنى أمية ، وقلما اختلفوا فى الجواب ..

سأل الفرزدق وهو خارج من مكة – والفرزدق مشهور بالتشيع لآل البيت – فقال له : « قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء » .

وقال له مجمع بن عبيد العامرى : « أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم فهم قلب واحد عليك ، وأما سائر الناس بعدهم فإن قلوبهم تهوى إليك وسيوفهم غدًا مشهورة عليك » .

وقد أصاب الفرزدق وأصاب مجمع بن عبيد ، فإن الناس جميعًا كانوا بأهوائهم وأفئدتهم مع الحسين بن علىّ ما لم تكن لهم منفعة موصولة بملك بنى أمية ، فهم إذن عليه بالسيوف التى تشهرها الأيدى دون القلوب .

وقد « أعظمت الرشوة » للرؤساء وأعظمت لهم من بعدها الوعود والآمال ، فعلموا أن دوام نعمتهم من دوام ملك بنى أمية .

فأما الرؤساء الذين كانت لهم مكانتهم بمعزل عن الملك القائم ، فقد كانوا ينصرون حسينًا ولا ينصرون الأمويين .. أو كانوا يصانعون الأمويين ولا يبلغون بالمصانعة أن يشهروا الحرب على الحسين .

ومن هؤلاء هانئ بن عروة من كبار الزعماء فى قبائل كندة ، وشريك بن الأعور ، وسليمان بن صرد الخزاعى ، وكلاهما من ذوى الشرف والدين .

بل كان من العاملين لبنى أمية من يخزه ضميره إذا بلغ العداء للحسين أشده ، فيترك معسكر بنى أمية ليلوذ بالمعسكر الذى كتب عليه الموت والبلاء . كما فعل الحر بن يزيد الرياحى فى كربلاء وقد رأى القوم يهمون بقتل الحسين ولا يقنعون بحصاره . فسأل عمر بن سعد قائد الجيش : « أمقاتل أنت هذا الرجل ؟ » . فلما قال : « نعم » ترك الجيش الأموى وذهب يقترب من الحسين حتى داناه فقال له : «جعلت فداك يا ابن رسول الله . أنا صاحبك حبستك عن الرجوع وجعجعت بك فى هذا المكان ، وما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضته عليهم ، ووالله لو علمت أنهم ينتهون بك إلى ما أرى ما ركبت مثل الذى ركبت ، وإنى تائب إلى الله مما صنعت ، فهل ترى لى من توبة ؟ » .

فقبل الحسين توبته وجعل الرجل يقاتل من ساعتها حتى قتل ، وآخر كلمة على لسانه فاه بها : « السلام عليك يا أبا عبد الله ! » .

* * *

فمجمل ما يقال على التحقيق أنه لم يكن فى معسكر يزيد رجل يعينه على الحسين إلا وهو طامع فى مال ، مستميت فى طمعه استماتة من يهدر الحرمات ولا يبالى بشىء منها فى سبيل الحطام .

ولقد كان لمعاوية مشيرون من ذوى الرأى كعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد بن أبيه ، وأضرابهم من أولئك الدهاة الذين يسميهم التاريخ أنصار دول وبناة عروش .

وكان لهم من سمعة معاوية وذرائعه شعار يدارون به المطامع ويتحللون من التأثيم .

لكن هؤلاء بادوا جميعًا فى حياة معاوية ، ولم يبق ليزيد مشير واحد ممن نسميهم بأنصار وبناة العروش ، وإنما بقيت له شرذمة على غراره أصدق ما توصف به أنها شرذمة جلادين ، يقتلون من أمروا بقتله ويقبضون الأجر فرحين .

فكان أعوان معاوية ساسة وذوى مشورة .

وكان أعوان يزيد جلادين وكلاب طراد فى صيد كبير .

وكانوا فى خلائقهم البدنية على المثال الذى يعهد فى هذه الطغمة من الناس ، ونعنى به مثال المسخاء المشوهين .. أولئك الذين تمتلىء صدورهم بالحقد على أبناء آدم ولا سيما من كان منهم على سواء الخلق وحسن الأحدوثة ، فإذا بهم يفرغون حقدهم فى عدائه وإن لم ينتفعوا بأجر أو غنيمة ، فإذا انتفعوا بالأجر والغنيمة فذلك هو حقد الضراوة الذى لا تعرف له حدود .

وشر هؤلاء جميعًا هم شمر بن ذى الجوشن ، ومسلم بن عقبة ، وعبيد الله بن زياد . ويلحق بزمرتهم على مثال قريب من مثالهم عمر بن سعد بن أبى وقاص .

فشمر بن ذى الجوشن كان أبرص كريه المنظر قبيح الصورة ، وكان يصطنع المذهب الخارجى ليجعله حجة يحارب بها عليًّا وأبناءه ، ولكنه لا يتخذه حجة ليحارب بها معاوية وأبناءه .. كأنه يتخذ الدين حجة للحقد ، ثم ينسى الدين والحقد فى حضرة المال .

* * *

ومسلم بن عقبة مخلوق مسمم الطبيعة فى مسلاخ إنسان ..

« وكان أعور أمغر ثائر الرأس ، كأنما يقلع رجليه من وحل إذا مشى » .

وقد بلغ من ضراوته بالشر وهو شيخ فان مريض ، أنه أباح المدينة فى حرم النبى ﷺ ثلاثة أيام ، واستعرض أهلها بالسيف جزرًا كما يجزر القصاب الغنم حتى ساخت الأقدام فى الدم ، وقتل أبناء المهاجرين والأنصار وذرية أهل بدر ، وأخذ البيعة ليزيد ابن معاوية على كل من استبقاه من الصحابة والتابعين على أنه عبد قن لأمير المؤمنين .. !

وانطلق جنده فى المدينة إلى جوار قبر النبى يأخذون الأموال ويفسقون بالنساء ، حتى بلغ القتلى فى تقدير الزهرى سبعمائة من وجوه الناس وعشرة آلاف من الموالى . ثم كتب إلى يزيد يصف له ما فعل وصنف الظافر المتهلل ، فقال بعد كلام طويل : « فأدخلنا الخيل عليهم .. فما صليت الظهر أصلح الله أمير المؤمنين إلا فى مسجدهم ! .. بعد القتل الذريع والانتهاب العظيم .. وأوقعنا بهم السيوف وقتلنا من أشرف لنا منهم واتبعنا مدبرهم وأجهزنا على جريحهم وانتهبناها ثلاثًا كما قال أمير المؤمنين أعز الله نصره ، وجعلت دور بنى الشهيد عثمان بن عفان فى حرز وأمان ، والحمد لله الذى شفا صدرى

من قتل أهل الخلاف القديم والنفاق العظيم ، فطالما عتوا وقديمًا ما طغوا . أكتب هذا إلى أمير المؤمنين وأنا فى منزل سعيد بن العاص مدنفًا مريضًا ما أرانى إلا لما بى .. فما كنت أبالى متى مت بعد يومى هذا ... » .

* * *

وكل هذا الحقد المتأجج فى هذه الطوية العفنة إنما هو الحقد فى طبائع المسخاء الشائهين .. يوهم نفسه أنه الحقد من ثأر عثمان أو من خروج قوم على ملك يزيد .

وكان عبيد الله بن زياد متهم النسب فى قريش ، لأن أباه زيادًا كان مجهول الأب فكانوا يسمونه زياد بن أبيه . ثم ألحقه معاوية بأبى سفيان لأن أبا سفيان ذكر بعد نبوغ زياد ، أنه كان قد سكر بالطائف ليلة فالتمس بغيا فجاءوه بجارية تدعى سمية ، فقالت له بعد مولد زياد أنها حملت به فى تلك الليلة .

وكانت أم عبيد الله جارية مجوسية تدعى مرجانة فكانوا يعيرونه بها وينسبونه إليها ، ومن عوارض المسخ فيه — وهى عوارض لها فى نفوس العرب دخلة تورث الضغن والمهانة — أنه كان ألكن اللسان لا يقيم نطاق الحروف العربية .

فكان إذا عاب الحرورى من الخوارج ، قال : « هرورى » فيضحك سامعوه ، وأراد مرة أن يقول أشهروا سيوفكم ، فقال افتحوا سيوفكم .. فهجاه يزيد بن مفرغ قائلاً :

ويوم فتحت سيفك من بعيد
أضعت وكل أمرك للضياع

ولم يكن أهون لديه من قطع الأيدى والأرجل والأمر بالقتل فى ساعة الغضب لشبهة ولغير شبهة . ففى ذلك يقول مسلم بن عقيل وهو صادق مؤيد بالأمثال والمثلات : « ويقتل النفس التى حرم الله قتلها على الغضب والعداوة وسوء الظن ، وهو يلهو ويلعب كأنه لم يصنع شيئًا » .

وقد كانت هذه الضراوة على أعنفها وأسوئها يوم تصدى عبيد الله بن زياد لمنازلة الحسين ، لأنه كان يومئذ فى شرة الشباب لم يتجاوز الثامنة والعشرين ، وكان يزيد

يبغضه ويبغض أباه لأنه كان قد نصح لمعاوية بالتمهل فى الدعوة إلى بيعة يزيد ، فكان عبيد الله من ثم حريصًا على دفع الشبهة والغلو فى إثبات الولاء للعهد الجديد .

والذين لم يمسخوا فى جبلتهم وتكوينهم هذا المسخ من أعوان يزيد بن معاوية ، كان الطمع فى المناصب والأموال واللذات قد بلغ ما يبلغه المسخ من تحويل الطبائع وطمس البصائر ومغالطة النفوس فى الحقائق .

* * *

ومن هذا القبيل ، عمر بن سعد بن أبى وقاص الذى أطاع عبيد الله بن زياد فى وقعة كربلاء و لم يعدل بتلك الوقعة عن نهايتها المشئومة ، وقد كان العدول بها عن تلك النهاية فى يديه .

فقد أغرى عمر بن سعد بولاية الرى ، وهى درة التاج فى ملك الأكاسرة الأقدمين . وكان يتطلع إليها منذ فتحها أبوه القائد النبيل العزوف ، وينسب إليه أنه قال وهو يراود نفسه على مقاتلة الحسين :

فــو الله مــا أدرى وإنى لحائــر
أفكــر فى أمــرى على خطريــن
أأتــرك مــلك الــرى والــرى منيتــى
أم أرجــع مأثومًــا بقتــل حسين
وفى قتلــه النــار التــى لــيس دونها
حجـاب ، ومـلك الـرى قـرة عينــى

فإن لم تكن هذه الأبيات من لسانه فهى ولا شك من لسان حاله ، لأنها تسجل الواقع الذى لا شبهة فيه .

* * *

ومن الواقع الذى لا شبهة فيه أيضًا ، أن عمر بن سعد هذا لم يخل من غلظة فى الطبع على غير ضرورة ولا استفزاز ، فهو الذى ساق نساء الحسين بعد مقتله على طريق

جثث القتلى التى لم تزل مطروحة بالعراء .. فصحن وقد لمحنها على جانب الطريق صيحة أسالت الدمع من عيون رجاله ، وهم ممن قاتل الحسين وذويه .

هؤلاء وأمثالهم لا يسمون ساسة ملك ولا تسمى مهنتهم تدعيم سلطان ، ولكنهم يسمون جلادين متنمرين يطيعون ما فى قلوبهم من غلظة وحقد ، ويطيعون ما فى أيديهم من أموال ووعود .. وتسمى مهمتهم مذبحة طائشة لا يبالى من يسفك فيها الدماء أى غرض يصيب .

* * *

ومنذ قضى على يزيد بن معاوية أن يكون هؤلاء وأمثالهم أعوانًا له فى ملكه ، قُضى عليه من ساعتها أن يكون علاجه لمسألة الحسين علاج الجلادين الذين لا يعرفون غير سفك الدماء ، والذين يسفكون كل دم أجروا عليه .

وهكذا كان ليزيد أعوان إذا بلغ أحدهم حده فى معونته فهو جلاد مبذول السيف والسوط فى سبيل المال .

وكان للحسين أعوان إذا بلغ أحدهم حده فى معونته فهو شهيد يبذل الدنيا كلها فى سبيل الروح .

وهى إذن حرب جلادين وشهداء ..

خروج الحسين

الحسين فى مكة

عمل يزيد بوصية أبيه ، فلم يكن له هم منذ قيامه على المُلك إلا أن يظفر ببيعة الحسين وعبد الله بن الزبير فى مقدمة النفر الذين أنكروا العهد له فى حياة معاوية .

وكان الوليد بن عقبة بن أبى سفيان والى معاوية يومئذ على المدينة .. فلما جاءه كتاب يزيد بنعى أبيه ، وأن يأخذ أولئك النفر بالبيعة « أخذًا شديدًا ليس فيه رخصة » دعا إليه بمروان بن الحكم ، فأشار عليه بمشورته التى جمعت بين الإخلاص وسوء النية .. وفحواها أن يبعث إلى الحسين وابن الزبير ، فإن بايعا وإلا ضرب عنقيهما !

وحدث بين الحسين والوليد ما تقدمت الإشارة إليه فى محضر مروان ، إذ عاد الحسين إلى بيته .. وقد عوّل على ترك المدينة إلى مكة كما تركها ابن الزبير من قبله . فخرج منها لليلتين بقيتا من شهر رجب سنة ستين للهجرة ، ومعه جل أهل بيته وأخوته وبنو أخيه ، ولزم فى مسيره إلى مكة الطريق الأعظم فلم يتنكبه كما فعل ابن الزبير مخافة الطلب من ورائه . فصحت فى الرجلين فراسة معاوية فى هذا الأمر الصغير ، كما صحت فى غيره من كبار الأمور .

وانصرف الناس فى مكة إلى الحسين عن كل مطالب بالخلافة غيره ، ومنهم ابن الزبير . فكان ابن الزبير يطوف بالكعبة كل يوم ويتردد عليه فى صباحه ومسائه ، يتعرف رأيه وما نمى إليه من آراء الناس فى الحجاز ، والعراق ، وسائر الأقطار الإسلامية .

فلبث الحسين فى مكة أربعة أشهر على هذه الحال ، يتلقى بين آونة وآونة دعوات المسلمين إلى الظهور وطلب البيعة ، ولا سيما أهل الكوفة وما جاورها .. فقد كتبوا إليه يقولون أن هنالك مائة ألف ينصرونك ، وألحوا فى الكتابة يستعجلونه الظهور .

وتردد الحسين طوال هذه الأشهر فيما يفعل بهذه الدعوات المتتابعات ، فبدا له أن يتمهل حتى يتبين جلية القوم ويستطلع طلعهم من قريب .

وآثر أن يرسل إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب يمهد له طريق البيعة إن رأى فيها محلاً لتمهيد ، وكتب إلى رؤساء أهل الكوفة قبل ذلك كتابًا يقول فيه : « أما بعد ، فقد أتتنى كتبكم وفهمت ما ذكرتم من محبتكم لقدومى عليكم ، وقد بعثت إليكم أخى وابن عمى وثقتى من أهل بيتى مسلم بن عقيل ، وأمرته أن يكتب إلىَّ بحالكم وأمركم ورأيكم .. فإن كتب إلىَّ أنه قد أجمع رأى ملئكم وذوى الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت علىَّ به رسلكم وقرأت فى كتبكم ، أقدم عليكم وشيكًا إن شاء الله . فلعمرى ما الإمام إلا العامل بالكتاب ، والآخذ بالقسط ، والدائن بالحق ، والحابس نفسه على ذات الله ، والسلام » .

* * *

ثم بلغ الحسين أن مسلمًا قد نزل الكوفة ، فاجتمع على بيعته للحسين اثنا عشر ألفًا ، وقيل ثمانية عشر ألفًا ، فرأى أن يبادر إليه قبل أن يتفرق هذا الشمل ويطول عليهم عهد الانتظار والمراجعة ، فظهر عزمه هذا لمشيريه من خاصته وأهل بيته فاختلفوا فى مشورتهم عليه بين موافق ومثبط وناصح بالمسير إلى جهة غير جهة العراق .

وكان أخوه محمد بن الحنفية يرى — وهو بعد فى المدينة — أن يبعث رسله إلى الأمصار ويدعوهم إلى مبايعته قبل قتال يزيد فإن أجمعوا على بيعته فذاك ، وإن اجتمع رأيهم على غيره « لم ينقص الله بذلك دينه ولا عقله » .

وكان عبد الله بن الزبير يقول له : « إن شئت أن تقيم بالحجاز آزرناك ونصحنا لك وبايعناك ، وإن لم تشأ البيعة بالحجاز توليني أنا البيعة فتطاع ولا تعصى » .

ويزعم كثير من المؤرخين أن ابن الزبير كان متهم النصيحة للحسين .. ومن هؤلاء المؤرخين أبو الفرج الأصبهانى . قال : « إن عبد الله بن الزبير لم يكن شىء أثقل عليه من مكان الحسين بالحجاز ، ولا أحب إليه من خروجه إلى العراق طمعًا فى الوثوب بالحجاز .. لأن ذلك لا يتم له إلا بعد خروج الحسين ، فلقيه وقال له : « على أى شىء عزمت يا أبا عبد الله ؟ » .

فأخبره برأيه فى إتيان الكوفة وأعلمه بما كتب به مسلم بن عقيل ، فقال الزبير : « فما يمسك ؟ فو الله لو كان لى مثل شيعتك بالعراق ما تلومت فى شىء » .

* * *

ولعل أنصح الناس له فى هذه المسألة كان عبد الله بن عباس لما بينهما من القرابة وما عرف به ابن عباس من الدهاء .. سأله :

– إن الناس أرجفوا أنك سائر إلى العراق ، فما أنت صانع ؟

قال :

– قد أجمعت السير فى أحد يومى هذين .

فأعاذه ابن عباس بالله من ذلك ، وقال له :

– إنى أتخوف عليك فى هذا الوجه الهلاك . إن أهل العراق قوم غدر . أقم بهذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز ، فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فلينفوا عدوهم ثم أقدم عليهم ، فإن أبيت إلا أن تخرج فسر إلى اليمن ، فإن بها حصونًا وشعابًا ولأبيك بها شيعة .

فقال له الحسين :

– يا ابن العم ! .. إنى أعلم أنك ناصح مشفق ، ولكنى قد أزمعت وأجمعت على المسير .

قال ابن عباس :

– إن كنت لابد فاعلاً ، فلا تخرج أحدًا من ولدك ولا حرمك ولا نسائك ، فخليق أن تقتل وهم ينظرون إليك كما قتل ابن عفان .

السفر إلى العراق

وخرج فى الثامن من ذى الحجة لا ينتظر العيد بمكة ، لأن أخبار البيعة بالكوفة حفزته إلى التعجيل بالسفر قبل فوات الأوان .

وكان مسلم بن عقيل قد نزل بالكوفة ، فأقبل عليه الناس ألوفًا ألوفًا يبايعون الحسين على يديه .. وبلغوا ثمانية عشر ألفًا فى تقدير ابن كثير وثلاثين ألفًا فى تقدير ابن قتيبة .

وهال الأمر النعمان بن بشير — والى الكوفة — فحار فيما يصنع بمسلم وأتباعه وهم يزدادون يومًا بعد يوم ، فصعد المنبر وخطب الناس معلنًا أنه لا يقاتل إلا من قاتله ولا يثب إلا على من وثب عليه .

* * *

وتسابق أنصار بنى أمية إلى يزيد ينقلون إليه ما يجرى بالكوفة ، فأشار عليه سرجون الرومى مولى أبيه أن يعزل النعمان ويولى الكوفة عبيد الله بن زياد ، مضمومة إلى البصرة التى كان يتولاها فى ذلك الحين .

وقدم عبيد الله إلى الكوفة فكان أول ما عمل بها أن جمع إليه عرفاء المدينة — أى مشايخ أحيائها — فأمرهم أن يكتبوا له أسماء الغرباء ومن فى أحيائهم من « طلبة أمير المؤمنين والحرورية وأهل الريب » ، وأنذرهم « أيما عريف وجد فى عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه إليه ، صلب على باب داره ، وألغيت تلك العرافة من العطاء » .

والتمس وجوه المدينة من شيعة الحسين يترضاهم ويستخرج خفاياهم . فسأل عمن تخلف منهم عن لقائه وعلى رأسهم هانئ بن عروة ، فقيل له إنه مريض لا يبرح داره .. وكان يتعلل بالمرض تجنبًا للقائه والسلام عليه .

فذهب عبيد الله إليه يعوده ويتلطف إليه ، وجاء فى بعض الروايات أنه قد أشير على مسلم بن عقيل بقتله وهو فى بيت هانئ ، فأبى أن يغتاله وهو آمن فى بيت مريض يعوده .

وقال ابن كثير ما فحواه أنهم أشاروا على مسلم بن عقيل بقتله وهو فى دار شريك ابن الأعور ، وقد علم شريك أن عبيد الله سيعوده .. فبعث إلى هانئ بن عروة يقول له : « ابعث مسلم بن عقيل فى دارى ليقتل عبيد الله إذا جاء يعودنى » .. فتحرج مسلم عن قتله ، وسأله شريك : « ما منعك أن تقتله ؟ » قال : « بلغنى حديث عن رسول الله ﷺ : (**إن الإيمان قيد الفتك ، لا يفتك مؤمن**) ، وكرهت أن أقتله فى بيتك » ..

قال شريك : « أما لو قتلته لجلست فى الثغر لا يستعدى به أحد ، ولكفيتك أمر البصرة ، ولكنت تقتله ظالمًا فاجرًا » .

ثم مات شريك بعد ثلاثة أيام .

* * *

وتضطرب الأقاويل فى وقائع هذه الأيام لتلاحقها وكثرتها وكثرة رواتها والعاملين فيها .. ولكن الشائع من تلك الأقاويل ينبئنا عن عنت شديد لقيه عبيد الله بن زياد فى مغالبة مسلم وشيعته ، وأنه هرب مرة من المسجد لأن الناس بصروا بمسلم مقبلاً فتصايحوا بعبيد الله فاعتصم بقصره وأغلق عليه أبوابه .

واجتمع إلى مسلم أربعة آلاف من حزبه ، فأمر من ينادى فى الناس بشعار الشيعة : « يا منصور ! أمت » . ثم تقدم إلى قصر الإمارة فى تعبئة كتعبئة الجيش .

ولم يكن فى القصر إلا ثلاثون رجلاً من الشرط وعشرون من أهل الكوفة . فخامر اليأس عبيد الله وظن أنه هالك قبل أن يدركه الغوث من مولاه . ولكنه تحيل بما فى وسع المستميت من حيلة هى على أية حال أجدى وأسلم له من التسليم ، فأنفذ أنصاره إلى كل صوب فى المدينة يعدون ويتوعدون .. وانطلق هؤلاء الأنصار يرجفون بقرب وصول المدد الزاخر من يزيد ، وينذرون الناس بقطع العطاء وأخذ البرىء بالمذنب والغائب بالشاهد ويبذلون المال لمن يرشى بالمال ، والوعد لمن يقنع بالوعد إلى حين .

مقتل مسلم بن عقيل

وتوسلوا بكل وسيلة تبلغ بهم ما أرادوا من تخذيل الناس عن مسلم بن عقيل حتى كانوا يرسلون الزوجة وراء زوجها والأم وراء ولدها والأخ وراء أخيه ، فيتعلقون بهم حتى يقفلوا إلى دورهم أو يدخلوا بهم فى زمرة عبيد الله .

فلما غربت شمس ذلك اليوم ، نظر مسلم حوله فإذا هو فى خمسمائة من أولئك الآلاف الأربعة .. ثم صلى المغرب فلم يكن وراءه فى الصلاة غير ثلاثين تسللوا من حوله تحت الظلام ، وبقى وحيدًا فى المسجد لا يجد معه من يدله على منزل يأوى إليه .

وتسمع عبيد الله من القصر حين سكنت الجلبة ، وسأل أصحابه أن يشرفوا ليروا من بقى من تلك الجموع .. فلم يروا أحدًا و لم يسمعوا صوتًا . فخيل إليهم أنها مكيدة حرب وان القوم رابضون تحت الظلال ، فأدلى بالقناديل والمشاعل حتى اطمأن إلى خلو المسجد وتفرق مسلم وأتباعه ، فدعا إلى الصلاة الجامعة وأمر المنادين فى أرجاء الكوفة : « ألا برئت الذمة من رجل من الشرطة والعرفاء والمناكب — رؤوس العرفاء — والمقاتلة ، صلى العشاء إلا فى المسجد » .

* * *

وأقام الحراس خلفه وهو يصلى بمن أجابوه وقد امتلأ بهم المسجد ، فخطبهم بعد الفراغ من صلاته قائلاً : « برئت ذمة الله من رجل وجدنا ابن عقيل فى داره » .

وصاح فى رئيس شرطته : « يا حصين بن نمير ! .. ثكلتك أمك إن ضاع باب سكة من سكك الكوفة وخرج هذا الرجل و لم تأتنى به ، وقد سلطتك على دور أهل الكوفة فابعث مراصد على أفواه السكك .. وأصبح غدًا فاستبرئ الدور وجس خلالها حتى تأتينى بهذا الرجل .. » .

وما هى إلا سويعات حتى جيء بابن عقيل وقد دافع الشرط عن نفسه ما استطاع . ووصل إلى القصر جريحًا مجهدًا ظمآن فأهوى إلى قُلة عند الباب فيها ماء بارد ، فقال له أحد أصحاب عبيد الله : « أتراها ما أبردها ! والله لا تذوق منها قطرة حتى تذوق الجحيم فى نار جهنم ! » .

وأنكر عمر بن حريث هذه الفظاعة من الرجل ، فجاءه بقُلة عليها منديل ومعها قدح فصب منها فى القدح وأدناه منه ، فإذا هو ينفث الدم فى القدح كلما رفعه للشرب منه حتى امتلأ وسقطت فيه ثنيتاه ، فحمد الله وقال : « لو كان لى من الرزق المقسوم لشربته » .

وأدخلوه على عبيد الله فنظر إلى جلسائه وفيهم عمر بن سعد بن أبى وقاص ، فناشده القرابة ليسمعن منه وصية ينفذها بعد موته . فأبى أن يصغى إليه ! .. ثم أذن له عبيد الله فقام معه فقال مسلم : « إن علىَّ بالكوفة دينًا استدنته سبعمائة درهم ، فبع سيفى

ودرعى فاقضها عنى ، وابعث إلى الحسين من يرده ، فإنى قد كتبت إليه أعلمه أن الناس معه ولا أراه إلا مقبلاً .. » .

فعاد عمر إلى عبيد الله فأفشى له السر الذى ناجاه به واوصاه أن يكتمه . ثم دعا عبيد الله بالحرسى الذى قاومه مسلم وضربه على رأسه — واسمه بكير بن حمران — فأسلم مسلمًا إليه وقال له :

— لتكن أنت الذى تضرب عنقه .

وصعدوا به إلى أعلى القصر فأشرفوا به على الجموع المحيطة به وضربوا عنقه ، فسقط رأسه إلى الرحبة وألقيت جثته إلى الناس . ثم أرسل رأسه إلى يزيد مع رؤوس سراة فى المدينة كان مسلم يأوى إليهم أول مقدمه إليها ، ومنهم هانىء بن عروة الذى تقدمت الإشارة إليه .

طلائع الفشل

كان مقتل مسلم بن عقيل فى التاسع من ذى الحجة ليلة العيد .. وكان خروج الحسين من مكة قبل ذلك بيوم واحد ، فلم يسمع بمقتله إلا وهو فى آخر الطريق .

ولما شارف العراق أحب أن يستوثق مرة أخرى قبل دخوله ، فكتب إلى أهل الكوفة كتابًا مع قيس بن سهر الصيداوى يخبرهم بمقدمه ويحضهم على الجد والتساند ، فوافى قيس القادسية وقد رصد فيها شرط عبيد الله فاعتقلوه وأشخصوه إليه .. فأمره عبيد الله أن يصعد القصر فيسب « الكذاب بن الكذاب الحسين بن علىّ » وينهى الناس أن يطيعوه .

فصعد قيس وقال : « أيها الناس .. إن هذا الحسين بن علىّ خير خلق الله ، ابن فاطمة بنت رسول الله ، وأنا رسوله إليكم ! وقد فارقته بالحاجز فأجيبوه ، والعنوا عبد الله بن زياد وأباه .. » .

فما كان منهم إلا أن قذفوا به من حالق ، فمات ..

وحدث مثل هذا مع عبد الله بن يقطر .. فأبى أن يلعن الحسين ، ولعن عبد الله ابن زياد ، فألقوا به من شرفات القصر إلى الأرض فاندكت عظامه ولم يمت ، فذبحوه .

وجعل الحسين كلما سأل قادمًا من العراق أنبأه بمقتل رسول من رسله أو داعية من دعاته ، فأشار عليه بعض صحبه بالرجوع ، وقال له غيرهم : « ما أنت مثل مسلم ابن عقيل ، ولو قدمت الكوفة لكان الناس إليك أسرع .. » .

ووثب بنو عقيل فأقسموا لا يبرحون حتى يدركوا ثأرهم أو يذوقوا ما ذاق مسلم ..

ولم ير الحسين بعد ذلك أن يصحب معه أحدًا إلا على بصيرة من أمره وما هو لاقيه إن تقدم ولم ينصرف لشأنه .. فخطب الرهط الذين صحبوه وقال لهم :

« وقد خذلنا شيعتنا .. فمن أحب منكم أن ينصرف فلينصرف ، ليس عليه منا ذمام ..» .

فتفرقوا إلا أهل بيته وقليلاً ممن تبعوه فى الطريق .

الحسين والحر بن يزيد

والتقى الركب عند جبل ذى حسم بطلائع جيش عبيد الله يقودها الحر بن يزيد التميمى اليربوعى فى ألف فارس ، أمروا بأن لا يدعوا الحسين حتى يقدموا به على عبيد الله فى الكوفة .

فأمر الحسين مؤذنه بالآذان لصلاة الظهر ، وخطب أصحابه وأصحاب الحر بن يزيد فقال :

– أيها الناس إنى لم آتكم حتى أتتنى كتبكم ورسلكم أن أقدم علينا فليس لنا إمام ، لعل الله يجمعنا بك على الهدى والحق . فقد جئتكم .. فإن تعطونى ما أطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم أقدم مصركم ، وإن لم تفعلوا أو كنتم لقدومى كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذى أقبلت منه ..

فلم يجبه أحد ..

فقال للمؤذن :

– أقم الصلاة !

وسأل الحر :

– أتريد أن تصلى أنت بأصحابك وأصلى بأصحابى ؟

فقال الحر :

– بلى نصلى جميعًا بصلاتك .

* * *

ثم تياسر الحسين إلى طريق العذيب ، فبلغها وفرسان عبيد الله يلازمونه ويصرون على أخذه إلى أميرهم وصده عن وجهته حيثما اتجه غير وجهتهم ، فأقبل عليهم يعظهم وهم يصغون إليه فقال :

« أيها الناس ! .. إن رسول الله ﷺ قال : من رأى سلطانًا جائرًا مستحلاً لحرم الله مخالفًا لسنة رسول الله يعمل فى عباد الله بالإثم والعدوان ، فلم يغير ما عليه بفعل ولا قول كان حقا على الله أن يدخله مدخله . ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالفئ ، وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله ، وأنا أحق من غيرى .

« وقد أتتنى كتبكم ورسلكم ببيعتكم وأنكم لا تسلموننى ولا تخذلوننى ، فإن بقيتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم ، وأنا الحسين بن علىّ وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، نفسى مع أنفسكم وأهلى من أهلكم ، فلكم فى أسوة . وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدى ، وخلعتم بيعتى ، فلعمرى ما هى لكم بنكير ، والمغرور من اغتر بكم ، فحظكم أخطأتم ، ونصيبكم ضيعتم .. ومن نكث فإنما ينكث على نفسه وسيغنى الله عنكم ، والسلام » .

فأنصت الحر بن يزيد وأصحابه ثم توجه إليه يحذره العاقبة وينبئه : « لئن قاتلت لتقتلن ! » .

فصاح به الحسين :

– أبالموت تخوفنى ! .. ما أدرى ما أقول لك .. ولكنى أقول كما قال أخو الأوس لابن عمر وهو يريد نصرة رسول الله ، فخوفه ابن عمر وأنذره أنه لمقتول فأنشد :

سأمضى وما بالموت عار على الفتى
إذا ما نوى خيرًا وجاهد مسلما

وآسى الرجـــال الصالحين بنفســـه
وخالــف مثبــورًا وفــارق مجرمــا
فإن عشت لم أندم ، وإن مت لم ألم
كفــى بك ذلا أن تعــيش وترغمــا

* * *

ثم سار الركبان ينظر بعضهما إلى بعض كلما مال الحسين نحو البادية أسرع الحر ابن يزيد فرده نحو الكوفة . حتى نزلا بنينوى ، فإذا راكب مقبل عليه بالسلاح ، يحيى الحر ولا يحيى الحسين ، ثم أسلم الحر كتابًا من عبيد الله يقول فيه : « أما بعد فجعجع بالحسين حتى يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولي ، فلا تنزله إلا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء .. وقد أمرت رسولي أن يلزمك فلا يفارقك حتى يأتيني بإنفاذك أمري والسلام » .

فلما بدا من الحر بن يزيد أنه يريد أن ينفذ أمر عبيد الله بن زياد ويخشى رقيبه الذي أمر ألا يفارقه حتى ينفذ أمره ، قال أحد أصحاب الحسين — زهير بن القين :

— إنه لا يكون والله بعد ما ترون إلا ما هو أشد منه . يا ابن رسول الله ! .. إن قتال هؤلاء أهون علينا من قتال من يأتينا بعدهم . فلعمري ليأتينا من بعدهم ما لا قبل لنا به . فهلم نناجز هؤلاء .

فأعرض الحسين عن مشورته وقال :

— إني أكره أن أبدأهم بقتال .

عمر بن سعد

وكان الديلم قد ثاروا على يزيد بن معاوية واستولوا على دستبى بأرض همذان ، فجمع لهم عبيد الله بن زياد جيشًا عدته أربعة آلاف فارس بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص الذي يذكر الديلم اسم أبيه — سعد — فاتح بلادهم ، وقد وعد بولاية الري بعد قمع الثورة الديلمية ، فلما قدم الحسين إلى العراق قال عبيد الله لعمر :

— نفرغ من الحسين ثم تسير إلى عملك .

فاستعفاه ، وعلم عبيد الله موطن هواه فقال له :

— نعم نعفيك على أن ترد إلينا عهدنا ..

فاستمهله حتى يراجع نصحاءه .. فنصح له ابن أخته حمزة بن المغيرة بن شعبة — وهو من أكبر أعوان معاوية — ألا يقبل مقاتلة الحسين ، وقال له :

— والله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض لو كان لك ، خير من أن تلقى الله بدم الحسين .

* * *

وبات ليلته يقلب وجوه رأيه ، حتى إذا أصبح ذهب إلى ابن زياد ، فاقترح عليه أن يبعث إلى الحسين من أشراف الكوفة من ليس يغني في الحرب عنهم .. فأبى ابن زياد إلا أن يسير إلى الحسين أو ينزل عن ولاية الرى .. فسار على مضض وجنوده متثاقلون متحرجون ، إلا زعانف المرتزقة الذين ليس لهم من خلاق .

وكان جنود الجيش يتسللون منه ويتخلفون بالكوفة .. فندب عبيد الله رجلاً من أعوانه — هو سعد بن عبد الرحمن المنقرى — ليطوف بها ويأتيه بمن تخلف عن المسير لقتال الحسين ، وضرب عنق رجل جيء به وقيل أنه من المتخلفين ، فأسرع بقيتهم إلى المسير .

وقد أدرك الجيش الحسين وهو بكربلاء على نحو من خمسة وعشرين ميلاً إلى الشمال الغربي من الكوفة . نزل بها فى الثانى من المحرم سنة إحدى وستين .

وخلا الجو فى الكوفة لرجلين اثنين يسابق كلاهما صاحبه فى اللؤم وسوء الطوية ، وينفردان بتصريف الأمر فى قضية الحسين دون مراجعة من ذى سلطان . وهما عبيد الله بن زياد ، وشمر بن ذى الجوشن .

عبيد الله المغموز النسب الذى لا يشغله شيء ، كما يشغله التشفى لنسبه المغموز من رجل هو بلا مراء أعرق العرب نسبًا فى الجاهلية والإسلام .. فليس أشهى إليه من فرصة ينزل فيها ذلك الرجل على حكمه ، ويشعره فيها بذله ورغمه .

شمر بن ذى الجوشن

وشمر بن ذى الجوشن الأبرص الكريه الذى يمضه من الحسين ما يمض كل لئيم مشنوء من كل كريم محبوب وسيم .

وكان كلاهما يفهم لؤم صاحبه ويعطيه فيه حقه وعذره ، فهما فى هذه الخلة متناصحان متفاهمان .. !

ولم يكن أيسر من حل قضية الحسين على وجه يرضى يزيد ويمهد له الولاء فى قلوب المسلمين ولو إلى حين .. لولا ذلك الضغن الممتزج بالخليقة الذى هو كسكر الخمور لا موضع معه لرأى مصيب ، ولا لتفكير فى عاقبة بعيدة أو قريبة .

فالحسين فى أيديهم ليس أيسر عليهم من اعتقاله وإبقائه بأعينهم فى مكان ينال فيه الكرامة ولا يتحفز لثورة .

لكنهما لم يفكرا فى أيسر شىء ولا أنفع شىء للدولة التى يخدمانها .. وإنما فكرا فى النسب المغموز والصورة الممسوخة ، فلم يكن لهما من هم غير إرغام الحسين وإشهاد الدنيا كلها على إرغامه .

تلقى ابن زياد من عمر بن سعد كتابًا يقول فيه أن الحسين « أعطانى أن يرجع إلى المكان الذى أقبل منه أو أن نسيره إلى أى ثغر من الثغور شئنا ، أو أن يأتى يزيد فيضع يده فى يده » .

والذى نراه نحن من مراجعة الحوادث والأسانيد أن الحسين ربما اقترح الذهاب إلى يزيد ليرى رأيه ، ولكنه لم يعدهم أن يبايعه أو يضع يده فى يده .. لأنه لو قبل ذلك لبايع فى مكانه واستطاع عمر بن سعد أن يذهب به إلى وجهته ، ولأن أصحاب الحسين فى خروجه إلى العراق قد نفوا ما جاء فى ذلك الكتاب ومنهم عقبة بن سمعان حيث كان يقول : « صحبت الحسين من المدينة إلى مكة ومن مكة إلى العراق ، ولم أفارقه حتى قتل وسمعت جميع مخاطباته إلى الناس إلى يوم قتله .. فو الله ما أعطاهم ما يزعمون من أن يضع يده فى يد يزيد ولا أن يسيروه إلى ثغر من الثغور ، ولكنه قال : « دعونى

أرجع إلى المكان الذى أقبلت منه أو دعونى أذهب فى هذه الأرض العريضة حتى ننظر إلى ما يصير إليه أمر الناس » .

* * *

ولعل عمر بن سعد قد تجوز فى نقل كلام الحسين عمدًا ليأذنوا له فى حمله إلى يزيد فيلقى عن كاهله مقاتلته وما تجر إليه من سوء القالة ووخز الضمير ، أو لعل الأعوان الأمويين قد أشاعوا عن الحسين اعتزامه للمبايعة ليلزموا بالبيعة أصحابه من بعده ، ويسقطوا حجتهم فى مناهضة الدولة الأموية .

وأيًا كانت الحقيقة فى هذه الدعوى فهى تكبر مأثمة عبيد الله وشمر ولا تنقص منها . ولقد كانا على العهد بمثليهما .. كلاهما كفيل أن يحول بين صاحبه وبين خالجة من الكرم تخامره أو تغالب اللؤم الذى فطر عليه ، فلا يصدر منهما إلا ما يوائم لئيمين لا يتفقان على خير .

وكأنما جنح عبيد الله إلى شيء من الهوادة حين جاءه كتاب عمر بن سعد ، فابتدره شمر ينهاه ويجنح إلى الشدة والاعتساف ، فقال له :

— أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك وإلى جنبك ! والله لئن رحل من بلادك ولم يضع يده فى يدك ليكونن أولى بالقوة والعزة ولتكونن أولى بالضعف والعجز .. فلا تعطه هذه المنزلة ، ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه ، فإن عاقبت كنت ولى العقوبة ، وإن عفوت كان ذلك لك .

ثم أراد أن يوقع بعمر ويتهمه عند عبيد الله ليخلفه فى القيادة ثم يخلفه فى الولاية ، فذكر لعبيد الله أن الحسين وعمر يتحدثان عامة الليل بين المعسكرين .

فعدل عبيد الله إلى رأى شمر وأنفذه بأمر منه أن يضرب عنق عمر إن هو تردد فى إكراه الحسين على المسير إلى الكوفة أو مقاتلته حتى يقتل . وكتب إلى عمر يقول له :

« أما بعد .. فإنى لم أبعثك إلى الحسين لتكف عنه ولا لتمنيه السلامة والبقاء ولا لتطاوله ولا لتعتذر عنه ولا لتقعد له عندى شافعًا .. انظر فإن نزل الحسين وأصحابه

على الحكم واستسلموا فابعث بهم إلىّ مسلمًا ، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فإنهم لذلك مستحقون . فإن قتل الحسين فأوطىء الخيل صدره وظهره فإنه عاق مشاق قاطع ظلوم .. فإن أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع ، وإن أنت أبيت فاعتزل جندنا وخل بين شمر بنى ذى الجوشن وبين العسكر والسلام » .

وختمت مأساة كربلاء كلها بعد أيام معدودات .

ولكنها أيام بقيت لها جريرة لم يحمدها طالب منفعة ولا طالب مروءة ، ومضت مئات السنين وهى لا تمحو آثار تلك الأيام فى تاريخ الشرق والإسلام .

هل أصاب ؟

خطأ الشهداء

خروج الحسين من مكة إلى العراق حركة لا يسهل الحكم عليها بمقياس الحوادث اليومية ، لأنها حركة من أندر حركات التاريخ فى باب الدعوة الدينية أو الدعوة السياسية .. لا تتكرر كل يوم ولا يقوم بها كل رجل ولا يأتى الخطأ فيها — إن أصابت — من نحو واحد ينحصر القول فيه ، ولا يأتى الخطأ فيها — إن أخطأت — من سبب واحد يمتنع الاختلاف عليه . وقد يكون العرف فيها بين أصوب الصواب وأخطأ الخطأ فرقًا صغيرًا من فعل المصادفة والتوفيق ، فهو خليق أن يذهب إلى النقيضين .

هى حركة لا يأتى بها إلا رجال خلقوا لأمثالها فلا تخطر لغيرهم على بال ، لأنها تعلو على حكم الواقع القريب الذى يتوخاه فى مقاصده سالك الطريق اللاحب والدرب المطروق .

هى حركة فذة يقدم عليها رجال أفذاذ ، من اللغو أن ندينهم بما يعمله رجال من غير هذا المعدن وعلى غير هذه الوتيرة .. لأنهم يحسون ويفهمون ويطلبون غير الذى يحسه ويفهمه ويطلبه أولئك الرجال .

هى ليست ضربة مغامر من مغامرى السياسة ، ولا صفقة مساوم من مساومى التجارة ، ولا وسيلة متوسل ينزل على حكم الدنيا أو تنزل الدنيا على حكمه ، ولكنها وسيلة من يدين نفسه ويدين الدنيا برأى من الآراء هو مؤمن به ومؤمن بوجوب إيمان الناس به دون غيره .. فإن قبلته الدنيا قبلها وإن لم تقبله فسيان عنده فواته بالموت أو فواته بالحياة ، بل لعل فواته بالموت أشهى إليه .

هى حركة لا تقاس إذن بمقياس المغامرات ولا الصفقات ، ولكنها تقاس بمقياسها الذى لا يتكرر ولا يستعاد على الطلب من كل رجل أو فى كل أوان .

ولا ننسى أن السنين الستين التى انقضت بعد حركة الحسين ، قد انقضت فى ظل دولة تقوم على تخطئته فى كل شيء وتصويب مقاتليه فى كل شيء .

* * *

إن القول بصواب الحسين معناه القول ببطلان تلك الدولة ، والتماس العذر له معناه إلقاء الذنب عليها . وليس بخاف على أحد كيف ينسى الحياء وتبتذل القرائح أحيانًا فى تنزيه السلطان القائم وتأثيم السلطان الذاهب . فليس الحكم على صواب الحسين أو على خطئه إذن بالأمر الذى يرجع فيه إلى أولئك الصنائع المتزلفين الذين يرهبون سيف الدولة القائمة ويغنمون من عطائها ، ولا لصنائع مثلهم يرهبون بعد ذلك سيفًا غير ذلك السيف ويغنمون من عطاء غير ذلك العطاء .

إنما الحكم فى صواب الحسين وخطئه لأمرين لا يختلفان باختلاف الزمان وأصحاب السلطان ، وهما البواعث النفسية التى تدور على طبيعة الإنسان الباقية ، والنتائج المقررة التى مثلت للعيان باتفاق الأقوال .

وبكل من هذين المقياسين القويين نقيس حركة الحسين فى خروجه على يزيد بن معاوية ، فنقول إنه قد أصاب .

أصاب إذا نظرنا إلى بواعثه النفسية التى تهيمن عليه ولا يتخيل العقل أن تهيمن عليه بواعث غيرها .

وأصاب إذا نظرنا إلى نتائج الحركة كلها نظرة واسعة ، لا يستطيع أن يجادل فيها من يأخذ الأمور بسنة الواقع والمصلحة أو من يأخذ الأمور بسنة النجدة والمروءة .

فما هى البواعث النفسية التى قامت بنفس الحسين يوم دعى فى المدينة بعد موت معاوية لمبايعة ابنه يزيد ؟

هى بواعث تدعوه كلها أن يفعل ما فعل ولا تدعو مثله إلى صنيع غير ذلك الصنيع . وخير لبنى الإنسان ألف مرة أن يكون فيهم خلق كخلق الحسين الذى أغضب يزيد ابن معاوية ، من أن يكون جميع بنى الإنسان على ذلك الخلق الذى يرضى به يزيد .

فأول ما ينبغي أن نذكره لفهم البواعث النفسية التي خامرت نفس الحسين في تلك المحنة الأليمة ، أن بيعة يزيد لم تكن بالبيعة المستقرة ولا بالبيعة التي يضمن لها الدوام في تقدير صحيح .

فهي بيعة نشأت في مهد الدس والتمليق ، ولم يجسر معاوية عليها حتى شجعه عليها من له مصلحة ملحة في ذلك التشجيع .

* * *

كان المغيرة بن شعبة واليًا لمعاوية على الكوفة ، ثم هم بعزله وإسناد ولايته إلى سعيد ابن العاص جريًا على عادته في إضعاف الولاة قبل تمكنهم ، وضرب فريق منهم بفريق حتى يعينه بعضهم على بعض ولا يتفقوا عليه . فلما أحس المغيرة نية معاوية ، قدم الشام ودخل على يزيد وقال له كالمستفهم المتعجب :

— لا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة ؟

ولم يكن يزيد نفسه يصدق أنه أهل لها أو أن بيعته مما يتم بين المسلمين على هينة . فقال للمغيرة :

— أو ترى ذلك يتم ؟

فأراه المغيرة أنه ليس بالعسير ، إذا أراده أبوه ..

وأخبر يزيد أباه بما قال المغيرة ، فعلم هذا أن فرصته سانحة وأنه سيبادل معاوية رشوة آجلة برشوة عاجلة .. يرشوه بإعانته على بيعة يزيد ، ويأخذ منه الرشوة ببقائه على ولاية الكوفة إلى أن يقضي في أمر هذه البيعة ، وله في التمهيد لها نصيب .

فلما لقي معاوية سأله هذا عما أخبره به يزيد ، فأعاده عليه وهو يزخرفه له بما يرضيه . قال :

— قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان ، وفي يزيد منك خلف فاعقد له ، فإن حدث بك حادث كان كهفًا للناس وخلفًا منك ، ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة .

فسأله معاوية وهو يتهيب ويتأنى :

— ومن لى بذلك ؟ ..

قال :

— أكفيك أهل الكوفة ، ويكفيك زياد أهل البصرة ، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك .

فرده معاوية إلى عمله كما كان يتمنى ، وأوصاه ومن معه ألا يتعجلوا بإظهار هذه النية .. ثم استشار زياد بن أبى سفيان ، فأطلع هذا بعض خاصته على الأمر وهو يقول :

— إن أمير المؤمنين ، يتخوف نفرة الناس ويرجو طاعتهم .. ويزيد صاحب رسلة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد .. فالق أمير المؤمنين وأد إليه فعلات يزيد وقل له رويدك بالأمر ، فأحرى أن يتم لك ولا تعجل فإن دركا فى تأخير خير من فوت فى عجلة .

فأشار عليه صاحبه « ألا يفسد على معاوية رأيه ولا يبغضه فى ابنه » . وعرض عليه أن يلقى يزيد فيخبره أن أمير المؤمنين كتب إليك يستشيرك فى البيعة له وأنك تتخوف خلاف الناس لهنات ينقمونها عليه ، وأنك ترى له ترك ما ينقم عليه لتستحكم له الحجة على الناس .

* * *

وقالوا إن يزيد كفَّ عن كثير مما كان يصنع بعد هذه النصيحة ، وإن معاوية أخذ برأى زياد فى التؤدة فلم يجهر بعقد البيعة حتى مات زياد .

وقد أحس معاوية الامتعاض من بيته قبل أن يحسه من الغرباء عنه . فكانت امرأته « فاختة » بنت قرظة بن حبيب بن عبد شمس تكره بيعة يزيد وتود لو أثر بالبيعة ابنها عبد الله ، فقالت له :

— ما أشار به عليك المغيرة ؟ .. أراد أن يجعل لك عدوًّا من نفسك يتمنى هلاكك كل يوم .

واشتدت نقمة مروان بن الحكم — وهو أقرب الأقرباء إلى معاوية — حين بلغته دعوة العهد ليزيد فأبى أن يأخذ العهد له من أهل المدينة ، وكتب إلى معاوية : « إن قومك قد أبوا إجابتك إلى بيعتك » . فعزله معاوية من ولاية المدينة وولاها سعيد بن العاص . فأوشك مروان أن يثور ويعلن الخروج وذهب إلى أخواله من بنى كنانة فنصروه وقالوا له :

— نحن نبلك فى يدك وسيفك فى قرابك . فمن رميته بنا أصبناه ومن ضربته قطعناه .. الرأى رأيك ، ونحن طوع يمينك .

ثم أقبل مروان فى وفد منهم كثير إلى دمشق ، فذهب إلى قصر معاوية وقد أذن للناس ، فمنعه الحاجب لكثرة من رأى معه فضربوه واقتحموا الباب . ودخل مروان وهم معه حتى سلم على معاوية وأغلظ له القول . فخاف معاوية هذا الجمع من وجوه قومه وترضى مروان ما استطاع ، وجعل له ألف دينار كل شهر ومائة لمن كان معه من أهل بيته .

* * *

ولم يكن مروان وحده بالغاضب بين بنى أمية من بيعة يزيد ، بل كان سعيد بن عثمان بن عفان يرى أنه أحق منه بالخلافة لأنه ابن عثمان الذى تذرع معاوية إلى الخلافة باسمه . فقال لمعاوية :

— يا أمير المؤمنين .. علام تبايع ليزيد وتتركنى ! .. فو الله لتعلم أن أبى خير من أبيه وأمى خير من أمه ، وأنك إنما نلت ما نلت بأبى .

فسرِّى معاوية عنه .. وقال له ضاحكًا هاشًا :

— يا ابن أخى ! .. أما قولك أن أباك خير من أبيه ، فيوم من عثمان خير من معاوية .. وأما قولك أن أمك خير من أمِّه ، ففضل قرشية على كلبية فضل بين ، وأما أن أكون نلت ما أنا فيه بأبيك فإنما المُلك يؤتيه الله من يشاء .. قتل أبوك رحمه الله فتواكلته بنو العاص وقامت فيه بنو حرب ، فنحن أعظم بذلك منة عليك ، وأما أن تكون خيرًا

من يزيد فو الله ما أحب أن دارى مملوءة رجالاً مثلك بيزيد . ولكن دعنى من هذا القول وسلنى أعطك ، وولاه خراسان .

فكان أكبر بنى أمية أعظمهم أملاً فى الخلافة بعد معاوية ، وكان بغضهم لبيعة يزيد على قدر أملهم فيها ، وهؤلاء — وإن جمعتهم مصلحة الأسرة فترة من الزمن — لم تكن منافستهم هذه ليزيد بالعلامة التى تؤذن بالبقاء وتبشره بالضمان والقرار .

وعلى هذا النحو ولدت بيعة يزيد بين التوجس والمساومة والإكراه ..

وبهذه الجفوة قوبلت بين أخلص الأعوان وأقرب القرباء .

وظهر من اللحظات الأولى ، أن المغيرة بن شعبة كان سمسارًا يصافق على ما لا يملك .. فقد ضمن الكوفة والبصرة ومنع الخلاف فى غيرهما ، فإذا الكوفة أول من كره بيعة يزيد ، وإذا البصرة تتلكأ فى الجواب وواليها يرجىء الأمر ويوصى بالتمهل فيه فلا يقدم عليه معاوية فى حياته ، وإذا أطراف الدولة من ناحية همذان تثور ، وإذا بالحجاز يستعصى على بنى أمية سنوات ، وإذا باليمن ليس فيها نصير للأمويين . ولو وجدت خارجًا يعلن الثورة عليهم لكانت ثورتها كثورة الحجاز .

بل يجوز أن يقال — مما ظهر فى حركة الحسين كل الظهور — أن الشام نفسها لم تنطو على رجل يؤمن بحق يزيد وبطلان دعوى الحسين . فقد كانوا يتحرجون من حرب الحسين ويتسلل من استطاع منهم التسلل قبل لقائه ، إلا أن يهدد بقطع الأرزاق وقطع الرقاب .

والحوادث التى تلت حركة الحسين إلى ختام عهد يزيد أدل مما تقدم على اضطراب عهده وقلة ضمانه ، لأن الأحداث والنذر لم تزل تتوالى بقية حياته وبعد موته بسنين .

ونحن اليوم نعلم من التاريخ كيف انتهت هذه الحوادث والنذر فى عهد يزيد أو بعد عهده ، فيخيَّل إلينا أن عواقبها لم تكن تحتمل الشك ولم يكن بها من خفاء . ولكن الذين استقبلوها كانوا خلقاء ألا يروا فيها طوالع ملك تعنو له الرؤوس ويرجى له طول البقاء .

بواعث الخروج

نعم كانت هناك ندحة عن الخروج لو كان يزيد فى الخلافة رضى المسلمين من العقل والخلق وسلامة التدبير وعزة الموئل والدولة ، وكان المسلمون قد توافقوا على اختياره لحبهم إياه ، وتعظيمهم لعقله وخلقه واطمئنانهم إلى سياسته واعتمادهم على صلاحه وإصلاحه .

ولكنه على نقيض ذلك ، كان كما علمنا رجلاً هازلاً فى أحوج الدول إلى الجد ، لا يرجى له صلاح ولا يرجى منه إصلاح . وكان اختياره لولاية العهد مساومة مكشوفة قبض كل مساهم فيها ثمن رضاه ومعونته جهرة وعلانية من المال أو الولاية أو المصانعة ، ولو قبضوا مثل هذا الثمن ليبايعوا وليًّا للعهد شرًّا من يزيد لما همَّهم أن يبايعوه وإن تعطلت حدود الدين وتقوضت معالم الأخلاق .

وأعجب شيء أن يطلب إلى حسين بن على أن يبايع مثل هذا الرجل ويزكيه أمام المسلمين ، ويشهد له عندهم أنه نعم الخليفة المأمول صاحب الحق فى الخلافة وصاحب القدرة عليها . ولا مناص للحسين من خصلتين : هذه ، أو الخروج ! .. لأنهم لن يتركوه بمعزل عن الأمر لا له ولا عليه .

* * *

إن بعض المؤرخين من المستشرقين وضعاف الفهم من الشرقيين ينسون هذه الحقيقة ولا يولونها نصيبها من الرجحان فى كفة الميزان .

وكان خليقًا بهؤلاء أن يذكروا أن مسألة العقيدة الدينية فى نفس الحسين لم تكن مسألة مزاج أو مساومة ، وأنه كان رجلاً يؤمن أقوى الإيمان بأحكام الإسلام ويعتقد أشد الاعتقاد أن تعطيل حدود الدين هو أكبر بلاء يحيق به وبأهله وبالأمة العربية قاطبة فى حاضرها ومصيرها . لأنه مسلم ولأنه سبط محمد .. فمن كان إسلامه هداية نفس فالإسلام عند الحسين هداية نفس وشرف بيت .

وقد لبث بنو أمية بعد مصرعه ستين سنة يسبونه ويسبون أباه على المنابر ، ولم يجسر أحد منهم قط على المساس بورعه وتقواه ورعايته لأحكام الدين فى أصغر صغيرة يباشرها

المرء سرًا أو علانية ، وحاولوا أن يعيبوه بشيء غير خروجه على دولتهم فقصرت ألسنتهم وألسنة الصنائع والأجراء دون ذلك . فكيف يواجه مثل هذا الرجل خطرًا على الدين فى رأس الدولة وعرش الخلافة مواجهة الهوادة والمشايعة والتأمين ؟ وكيف يسام أن يرشح للإمامة من لا شفاعة له ولا كفاية فيه إلا أنه ابن أبيه ؟

لقد كان أبوه معاوية على كفاءة ووقار وحنكة ودراية بشئون الملك والرئاسة ، وكان له مع هذا نصحاء ومشيرون أولو براعة وأحلام تكبح من السلطان ما جمح وتقيم ما انحرف وتملى له فيما عجز عنه . وهذا ابنه القائم فى مقامه لا كفاءة ولا وقار ولا نصحاء ولا مشيرون ، إلا من كان عونًا على شر أو موافقًا على ضلالة . فما عسى أن تكون الشهادة له بالصلاح للإمامة إلا تغريرًا بالناس وقناعة بالسلامة أو الأجر المبذول على هذا التغرير ؟ ..

ثم هى خطوة لا رجعة بعدها إذا أقدم عليها الحسين بما أثر عنه من الوفاء وصدق السريرة . فإذا بايع يزيد فقد وفى له بقية حياته كما وفى لمعاوية بما عاهده عليه ، ولا سيما حين يبايع يزيد على علم بكل نقيصة فيه قد يتعلل بها المتعلل لنقض البيعة وانتحال أسباب الخروج .

فمُلك يزيد لم يقم على شيء واحد يرضاه الحسين لدينه أو لشرفه أو للأمة الإسلامية . ومن طلب منه أن ينصر هذا المُلك فإنما يطلب منه أن ينصر مُلكًا ينكر كل دعواه ولا يحمد له حالة من الأحوال ، ولا تنس بعد هذا كله أن هذا الملك كان يقرر دعائمه فى أذهان الناس بالغض من الحسين فى سمعة أبيه وكرامة شيعته ومريديه . فكانوا يسبون عليًا على المنابر وينعتونه بالكذب والمروق والعصيان ، وكانوا يتحرون أنصاره حيث كانوا فيقهرونهم على سبه والنيل منه بمشهد من الناس ، وإلا أصابهم العنت والعذاب وشهروا فى الأسواق بالصلب والهوان . فمجاراة هذه الأمور كلها فى مفتتح مُلك جديد معناه أنها سنة قد وجبت واستقرت الجيل بعد الجيل بغير أمل فى التغيير والتبديل . فمن أقر هذه السنة فى مفتتح هذا المُلك الجديد فقد ضعف أمله وضعف أمل أنصاره فيه يومًا بعد يوم ، وازداد مع الزمن ضعفًا كما ازدادت حجة خصومه قوة عليه .

هذه هى البواعث النفسية التى كانت تجيش فى صدر الحسين يوم دعاه أولياء بنى أمية إلى مبايعة يزيد والنزول عن كل حق له ولأبنائه ولأسرته فى إمامة المسلمين ، كائنًا من كان القائم بالأمر وبالغًا ما بلغ من قلة الصلاح وبطلان الحجة . وهى بواعث لا تثنيه عن الخروج ولا تزال تلح عليه فى اتخاذ طريق واحد من طريقين لا معدل عنهما ، وهما الخروج إن كان لابد خارجًا فى وقت من الأوقات ، أو التسليم بما ليست ترضاه له مروءة ولا يرضاه له إيمان .

مصرع وانتصار

أما نتائج الحركة كلها — إذا نظرنا إليها نظرة واسعة — فهى أنجح للقضية التى كان ينصرها من مبايعة يزيد .

فقد صرع الحسين عام خروجه ، ولحق به يزيد بعد ذلك بأقل من أربع سنوات .

ولم تنقض ست سنوات على مصرع الحسين حتى حاق الجزاء بكل رجل أصابه فى كربلاء ، فلم يكد يسلم منهم أحد من القتل والتنكيل مع سوء السمعة ووسواس الضمير .

ولم تعمر دولة بنى أمية بعدها عمر رجل واحد مديد الأجل ، فلم يتم لها بعد مصرع الحسين نيف وستون سنة ! .. وكان مصرع الحسين هو الداء القاتل الذى سكن فى جثمانها حتى قضى عليها ، وأصبحت ثارات الحسين نداء كل دولة تفتح لها طريقًا إلى الأسماع والقلوب .

ولإصابة هذه الحركة فى نتائجها الواسعة دخل فى روع بعض المؤرخين أنها تدبير من الحسين رضى الله عنه ، توخاه منذ اللحظة الأولى وعلم موعد النصر فيه .. فلم يخامره الشك فى مقتله ذلك العام ، ولا فى عاقبة هذه الفعلة التى ستحيق لا محالة بقاتليه بعد أعوام .

فقال ماربين الألمانى فى كتابه (السياسة الإسلامية) : « إن حركة الحسين فى خروجه على يزيد إنما كانت عزمة قلب كبير عز عليه الإذعان وعز عليه النصر العاجل ،

فخرج بأهله وذويه ذلك الخروج الذى يبلغ به النصر الآجل بعد موته ، ويحيى به قضية مخذولة ليس لها بغير ذلك حياة » .

فإن لم يكن رأى الكاتب حقا كله ، فبعضه على الأقل حق لا شك فيه ويصدق ذلك — فى رأينا — على حركة الحسين بعد أن حيل بينه وبين الذهاب لوجهه الذى يرتضيه ، فآثر الموت كيفما كان ولم يجهل ما يحيق ببنى أمية من جراء قتله .. فهو بالغ منهم بانتصارهم عليه ما لم يكن ليبلغه بالنجاة من وقعة كربلاء .

* * *

وقد جرى ذكر الموت على لسان الحسين من خطوته الأولى وهو يتهيأ للرحيل ويودع أصحابه فى الحجاز . فقال لهم : « إن الموت حق على ولد آدم » ولم يخف عليه أنه يركب الخطة التى لا يبالى راكبها ما يصيبه من ذلك القضاء .

لكنه لم يكن ييأس من إقناع الناس والتفافهم به منذ خطوته الأولى . ولم يعقد عزمه على ملاقاة الموت حتى ساموه الرغم ، وأبوا عليه أن ينصرف إلى أى منصرف قبل التسليم المبين ، مسوقًا على الكره منه إلى عبيد الله بن زياد .

وتتباين آراء المتأخرين خاصة فى خروج الحسين بنسائه وأبنائه ، أكان هو الأحزم والأكرم أم كان الأحزم والأكرم أن يخرج بمفرده حتى يرى ما يكون من استجابة الناس له أو إعراضهم عنه وضعفهم فى تأييده .

وليس للمتأخرين أن يقضوا فى مسألة كهذه بعقولهم وعاداتهم ، لأنها مسألة يُقضى فيها بحكم العقل العربى وعاداته فى أشباه هذه المواقف . وقد كان اصطحاب النساء والأبناء عادة عربية فى البعوث التى يتصدى لها المرء متعمدًا القتال دون غيره فضلاً عن البعوث التى قد تشتبك فى القتال وقد تنتهى بسلام كبعثة الحسين .

فكان المقاتلون فى وقعة ذى قار يصطحبون حلائلهم وذراريهم ويقطعون وضن الرواحل — أى أحزمتها — قبل خوض المعركة ، وكان المسلمون والمشركون معًا يصطحبون الحلائل والذرارى فى غزوات النبى ﷺ ، وكان مع المسلمين فى حرب الروم صفوة نساء قريش وعقائل بيوتاتها ، وكان النبى ﷺ يصطحب زوجة أو أكثر

من زوجة فى غزواته وحروبه ، وحكم الواحدة هنا حكم الكثيرات ، وهى عادة عربية عريقة يقصدون بها الإشهاد على غاية العزم وصدق النية فيما هم مقبلون عليه ، وفى معلقة ابن كلثوم إشارة مجملة إلى معنى هذه العادة العربية من قديم عصورها حيث يقول :

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا
يقتن جيادنا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا

وقد كان الحسين رضى الله عنه يندب الناس لجهاد يخوضونه إن قضى عليهم أن يخوضوه فلا يبالون ما يصيبهم فى أنفسهم وفى أبنائهم وأموالهم ، لأنهم يطلبون به ما هو أعز على المؤمن من النفس والولد والمال ، فليس من المروءة أن يندبهم لأمر ولا يكون قدوة لهم فيه .

وكان على الحسين وقد أزمع الخروج أن يجمع له أقوى حجة فى يديه ويجمع على خصومه أقوى حجة تنقلب عليهم ، إذا غلبوه وأخفق فى مسعاته .. فيكون أقوى ما يكون وهو منتصر ، ويكونون أبغض ما يكونون وهو مخذول .

والمسلم الذى ينصر الحسين لنسبه الشريف أولى أن ينصره غاية نصره وهو بين أهله وعشيرته ، وإلا فما هو بناصره على الإطلاق ، وتنقلب الآية فى حالة الخذلان ، فينال المنتصر من البغضاء والنقمة على قدر انتصاره الذى يوشك أن ينقلب عليه .

صواب الشهداء

وجملة ما يقال أن خروج الحسين من الحجاز إلى العراق ، كان حركة قوية لها بواعثها النفسية التى تنهض بمثله ولا يسهل عليه أن يكبتها أو يحيد بها عن مجراها .

وأنها قد وصلت إلى نتائجها الفعالة من حيث هى قضية عامة تتجاوز الأفراد إلى الأعقاب والأجيال ، سواء أكانت هذه القضية نصرة لآل الحسين أم حربًا لبنى أمية .

إنما يبدو الخطأ فى هذه الحركة حين ننظر إليها من زاوية واحدة ضيقة المجال قريبة المرمى ، وهى زاوية العمل الفردى الذى يراض بأساليب المعيشة اليومية ويدور على النفع العاجل للقائمين به والداعين إليه .

فحركة الحسين لم تكن مسددة الأسباب لمنفعة الحسين بكل ثمن وحيثما كانت الوسيلة .

وعلة ذلك ظاهرة قريبة .

وهى أن الحسين رضى الله عنه طلب الخلافة بشروطها التى يرضاها و لم يطلبها غنيمة يحرص عليها مهما تكلفه من ثمن ومهما تتطلب من وسيلة ..

وهنا غلطة الشهداء ..

بل قل : هنا صواب الشهداء ..

ومن هو الشهيد إن لم يكن هو الرجل الذى يصاب ويعلم أنه يصاب لأن الواقع يخذله ولا يجرى معه إلى مرماه ؟

ومن هو الشهيد إن لم يكن هو الرجل الذى « يكلف الأيام ضد طباعها » ويصدق الخير فى طبيعة الإنسان والخير عزيز والدنيا به شحيحة ؟

منذ القدم ، أخطأ الشهداء هذا الخطأ ، ولو أصابوا فيه لما كانوا شهداء ولا شرفت الدنيا بفضيلة الشهادة .

فالحسين رضى الله عنه قد طلب خلافة الراشدين حيث لا تتسنى خلافة الراشدين ، أو حيث تتسنى الدولة الدنيوية التى يضن بها أصحابها ويتكالبون عليها ويتوسلون إليها بوسائلها .

فكانت عنايته بالدعوة والإقناع أعظم جدًّا من عنايته بالتنظيم والإلزام .

نزل رسوله الأول مسلم بن عقيل بالكوفة صفر اليدين من المال حتى احتاج فيها أن يقترض سبعمائة درهم هى التى أوصى بردها إلى أصحابها قبل قتله .

وتلك عقبة من العقبات التى تعوق الدعوات الكبار ، ولكنها على هذا لم تكن بالعقبة العصية التذليل .

فلو أنه قد طلب المال من وسائله الدنيوية أو السياسية ، لما استعصى عليه أن يأخذ منه ما يكفيه . فلعله كان ميسورًا له بعد أن تجمع حوله الأنصار وبايع الحسين على

يديه ثلاثون ألفًا كما جاء فى بعض الروايات . ففى تلك اللحظة لعله كان يستطيع أن يحيط بقصر الوالى الأموى ويستولى عليه وينشىء الحكومة الحسينية فيه . ثم لعله كان يستطيع بعد ذلك أن يوجه الدعاة إلى أطراف الدولة الشرقية ليتلقى البيعة ويقيم الولاة ويحشد الأجناد .

فإذا كان هذا فاته حتى خف الأمويون لدرء الخطر عنهم وبعثوا إلى الكوفة بعبيد الله بن زياد ، فقد سيق عبيد الله فى يوم من الأيام إلى يديه وكان فى وسعه أن يبطش به ويستوى على كرسيه ويحرم يزيد بن معاوية نصيرًا من أعنف أنصاره .

وقد فاته هذا لأن شريعة الخلافة لا تبيحه فى رأيه ، أو لأنه اعتقد أن الحق بيِّن وأن الباطل بيِّن .. فلا حاجة به بعد التمييز بينهما إلى فتكة الغدر كما سماها ، ولا محل عنده لإهدار الدماء وهو ينعى على الدولة القائمة أنها تهدر الدماء بالشبهات .

ولقد رأى مسلم أن حق صاحبه فى الخلافة قائم على شىء واحد وهو إقبال الناس إليه طائعين ومبايعتهم إياه مختارين . فأما وقد تفرقوا عنه رهبة من السلطان أو ضعفًا فى اليقين ، فالرأى عنده أن يكتب إلى صاحبه يعلمه بانفضاض الناس عنه ويثنيه عن القدوم ، ولا حق له عليهم بعد ذلك حتى يثوبوا إليه .

وقيام الخلافة على هذا الاختيار عقيدة لا نفهمها نحن الآن ، ولكن قد يفهمها يومئذ من كان على مقربة من عهد النبوة وعهد الصديق والفاروق .

فقد كان الصراع بين الحسين ويزيد أول تجربة من قبيلها بعد عهد النبوة وعهد الخلفاء الأولين .

لم يكن الصراع بين علىّ ومعاوية على هذا الوضوح الذى لا شبهة فيه بين الحق والباطل وبين الفضيلة والنقيضة .

لكنه فى بيعة الحسين كان قد وضح وضوح الصبح لذى عينين :

وكان ذلك كما قلنا أول تجربة من قبيلها بعد عهد الفداء فى سبيل العقيدة والإيمان .. بعد العهد الذى كان الرجل فيه يخرج من ماله وينفصل من ذويه ويتجرد لحرب أبيه وأخيه وبنيه إن خالفوه فى أمر الإسلام .. بعد العهد الذى كان القليل فيه من المسلمين

يصدون الكثير من المشركين وفى أيديهم السلاح والعتاد ومن ورائهم المعاقل والأزواد .. بعد العهد الذى تغير فيه الناس ، وخيل إلى من كان يعهدهم على غير تلك الحال أنهم متغيرون .

الناس عبيد الدنيا

فكيف ينخذل الحسين وينتصر يزيد فى عالم شهد النبوة وشهد الخلافة على سنة الراشدين ؟ إن كلمة واحدة قالها الحسين فى ساعة يأسه تشف عن مبلغ يقينه بوجوب الحق وعجبه من أن يكون الأمر غير ما وجب ، وذلك حيث قال : « الناس عبيد الدنيا ، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت به معائشهم ، فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون » .

إن الطبائع الأرضية لا تنخدع فى صلاح الناس ولا تجب هذا العجب لأنها لا تخرج من نطاقها المحدود ولا تصدق ما وراءه من الآمال والوعود .

إنها لا تضل عن طريق المنفعة لأنها لا تعرف غيرها من طريق ، إنها تؤثر القنديل الخافت فى يدها على الكوكب اللامع فى السماء ، لا لأنها لا ترى الكوكب اللامع فى السماء ، بل لأنها ترى القنديل والكوكب فتعلم أن هذا قريب وأن ذاك جد بعيد .

إنها لا تنخدع بالسراب لأنها لا تخرج من عقر دارها ولا تشعر بظمأ الفؤاد ولا تنظر إلى السراب .

ولكن طبيعة الشهداء غير طبيعة المساومة على البيع والشراء .

طبيعة المساومة موكلة بالحرص على الهنات .

وطبيعة الشهادة موكلة ببذل الحياة لما هو أدوم من الحياة .

وشتان طبيعة وطبيعة ، وشتان خطأ الشهداء وخطأ المساومين .

وليست موازين المساومة بالموازين الفذة التى يصلح عليها أمر بنى الإنسان ، فإن بنى الإنسان ما بهم عن غنى قط عن الذين يخطئون لأنهم أرفع من المصيبين ، وأنهم هم الشهداء .

وإنهم لعلى صواب فى المدى البعيد ، وإن كانوا على خطأ فى المدى القريب .. مدى الأجواف والمعدات والجلود لا مدى الأرواح والأخلاد .

من هؤلاء كان الحسين رضى الله عنه ، بل هو أبو الشهداء وينبوع شهادة متعاقبة لا يقرن بها ينبوع فى تاريخ البشر أجمعين .

فلا جرم يصيب فى المدى البعيد ويخطىء فى المدى القريب .. مدى المنفعة التى تناله هو فى معيشة يومه ، وهو المدى الذى لا يأسف عليه ولا ينص الركاب إليه .

كربلاء

الحرم المقدس

عرفت قديمًا باسم « كوربابل » ثم صحفت إلى كربلاء ، فجعلها هذا التصحيف عرضة لتصحيف آخر يجمع بين الكرب والبلاء ، كما رسمها بعض الشعراء .

ولم يكن لها ما تذكر به فى أقرب جيرة لها فضلاً عن أرجاء الدنيا البعيدة منها .. فليس لها من موقعها ، ولا من تربتها ، ولا من حوادثها ، ما يغرى أحدًا برؤيتها ثم يثبت فى ذاكرة من يراها ساعة يرحل عنها .

فلعل الزمن كان خليقًا أن يعبر بها سنة بعد سنة وعصرًا بعد عصر ، دون أن يسمع لها اسم أو يحس لها بوجود .. إلا أن تذكر « نينوى » وجيرتها فتدخل فى زمرة تلك الجيرة بغير حساب .

وشاءت مصادفة من المصادفات أن يساق إليها ركب الحسين بعد أن حيل بينه وبين كل وجهة أخرى ، فاقترن تاريخها منذ ذلك اليوم بتاريخ الإسلام كله . ومن حقه أن يقترن بتاريخ بنى الإنسان حيثما عرفت لهذا الإنسان فضيلة يستحق بها التنويه والتخليد .

فهى اليوم حرم يزوره المسلمون للعبرة والذكرى ، ويزوره غير المسلمين للنظر والمشاهدة ، ولكنها لو أعطيت حقها من التنويه والتخليد ، لحق لها أن تصبح مزارًا لكل آدمى يعرف لبنى نوعه نصيبًا من القداسة وحظًّا من الفضيلة ، لأننا لا نذكر بقعة من بقاع هذه الأرض يقترن اسمها بجملة من الفضائل والمناقب أسمى وألزم لنوع الإنسان من تلك التى اقترنت باسم كربلاء ، بعد مصرع الحسين فيها .

فكل صفة من تلك الصفات العلوية التى بها الإنسان إنسان وبغيرها لا يحسب غير ضرب من الحيوان السائم .. فهى مقرونة فى الذاكرة بأيام الحسين رضى الله عنه فى تلك البقعة الجرداء .

وليس فى نوع الإنسان صفات علويات أنبل ولا ألزم له من الإيمان والفداء والإيثار ويقظة الضمير وتعظيم الحق ورعاية الواجب والجلد فى المحنة والأنفة من الضيم والشجاعة فى وجه الموت المحتوم .. وهى — ومثيلات لها من طرازها — هى التى تجلت فى حوادث كربلاء منذ نزل بها ركب الحسين ، ولم تجتمع كلها ولا تجلت قط فى موطن من المواطن تجليها فى تلك الحوادث ، وقد شاء القدر أن تكون فى جانب منها أشرف ما يشرف به أبناء آدم ، لأنها فى الجانب الآخر منها أخزى ما يخزى به مخلوق من المخلوقات .

وحَسْبك من تقويم الأخلاق فى تلك النفوس ، أنه ما من أحد قُتل فى كربلاء إلا كان فى وسعه أن يتجنب القتل بكلمة أو بخطوة ، ولكنهم جميعًا آثروا الموت عطاشًا جياعًا مناضلين على أن يقولوا تلك الكلمة أو يخطوا تلك الخطوة ، لأنهم آثروا جمال الأخلاق على متاع الحياة .

أو حسبك من تقويم الأخلاق فى نفس قائدها وقدوتها أنهم رأوه بينهم فافتدوه بأنفسهم ، ولن يبتعث المرء روح الاستشهاد فيمن يلازمه إلا أن يكون هو أهلاً للاستشهاد فى سبيله وسبيل دعوته ، وأن يكون فى سليقة الشهيد الذى يأتم به الشهداء .

نموت معك

أقبل الفتى الصغير على بن الحسين على أبيه .. وقد علم أنهم مخيرون بين الموت والتسليم فسأله :

— ألسنا على الحق ؟ ..

قال الوالد المنجب النجيب :

— بلى والذى يرجع إليه العباد .

فقال الفتى :

— يا أبه ! .. فإذن لا نبالى ! .

وهكذا كانوا جميعًا لا يبالون ما يلقون ، ما علموا أنهم قائمون بالحق وعليه يموتون .

وأراد الحسين — وقد علم أن التسليم لا يكون — أن يبقى للموت وحده وألا يعرض

له أحدًا من صحبه . فجمعهم مرة بعد مرة وهو يقول لهم فى كل مرة : « لقد بررتم وعاونتم والقوم لا يريدون غيرى . ولو قتلونى لم يبتغوا غيرى أحدًا .. فإذا جنكم الليل فتفرقوا فى سواده وانجوا بأنفسكم » .

فكأنما كان قد أراد لهم الهلاك ولم يرد النجاة ، وفزعوا من رجائهم إياه كما يفزع غيرهم من مطالبتهم بالثبات والبقاء . وقالوا له كأنهم يتكلمون بلسان واحد : « معاذ الله والشهر الحرام .. ماذا نقول للناس إذا رجعنا إليهم ؟ أنقول لهم إنا تركنا سيدنا وابن سيدنا وعمادنا ، تركناه غرضًا للنبل ودريئة للرماح وجزرًا للسباع ، وفررنا عنه رغبة فى الحياة ؟ معاذ الله .. بل نحيا بحياتك ونموت معك .. » .

قالوا له نموت معك ولك رأيك : ولم يخطر لأحد منهم أن يزين له العدول عن رأيه إيثارًا لنجاتهم ونجاته . ولو خادعوا أنفسهم قليلاً لزينوا له التسليم وسموه نصيحة مخلصين يريدون له الحياة ، ولكنهم لم يخادعوا أنفسهم ولم يخادعوه ، ورأوا أصدق النصيحة له أن يجنبوه التسليم ولا يجنبوه الموت ، وهم جميعًا على ذلك .

ولم يكونوا جميعًا من ذوى عمومته وقرباه ، بل كان منهم غرباء نصحوا له ولأنفسهم هذه النصيحة التى ترهب العار ولا ترهب الموت . فقال له زهير بن القين : « والله لوددت أنى قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى أقتل هكذا ألف مرة ، ويدفع الله بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك » .

وقال مسلم بن عوسجة كأنه يعتب لما اختار له من السلامة : « أنحن نخلى عنك ؟ وبم نعتذر إلى الله فى أداء حقك ؟ لا والله حتى أطعن فى صدورهم برمحى وأضربهم بسيفى ما ثبت قائمه فى يدى ، ولو لم يكن معى سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسوله فيك . وأما والله لو علمت أننى أقتل ثم أحيى ثم أحرق ثم أحيى ثم أحرق ثم أذرى ويفعل بى ذلك سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حمامى دونك .. » .

وجىء إلى رجل من أصحابه الغرباء بنبأ عن ابنه فى فتنة الديلم ، فعلم أن الديلم أسروه ولا يفكون إساره بغير فداء ، فأذن له الحسين أن ينصرف وهو فى حل من بيعته ويعطيه فداء ابنه . فأبى الرجل إباء شديدًا ، وقال : « عند الله أحتسبه ونفسى »

ثم قال للحسين : « هيهات أن أفارقك ثم أسأل الركبان عن خبرك .. لا يكن والله هذا أبدًا » .

* * *

وقد تناهت هذه المناقب إلى مداها الأعلى فى نفس قائدهم الكريم .. يخيل إلى الناظر فى أعماله بكربلاء أن خلائقه الشريفة كانت فى سباق بينها أيها يظفر بفخار اليوم كله ، فلا يدرى أكان فى شجاعته أشجع ، أم فى صبره أصبر ، أم فى كرمه أكرم ، أم فى إيمانه وأنفته وغيرته على الحق بالغًا من تلك المناقب المثلى أقصى مداه .. إلا أنه كان يوم الشجاعة لا مراء ، وكانت الشجاعة فضيلة الفضائل التى تمدها سائرها بروافد من كل خلق نبيل يعينها على شأنها . فكان الحسين — شبل على — فى شجاعته الروحية والبدنية معًا فى غاية الغايات ، وكان مضرب المثل بين الرعيل الأول من أشجع الشجعان فى أبناء آدم وحواء .

ملك جأشه .. وكل شيء من حوله يوهن الجأش ، ويحل عقدة العزم ، ويغرى بالدعة والمجاراة .

ملك جأشه ومن حوله نساؤه وأبناؤه فى نضارة العمر ، يجوعون ويظمأون ، ويتشبثون به ويبكون ، وملك جأشه روية وأناة ولم يملكه وثبة واثب إلى الغضب أو هيجة مهتاج إلى الوغى ، فكان قبل القتال وفى حومة القتال قويًا بصيرًا ينفض الضعف عن عزائمه ، كما ينفض الأسد غبرات الحصاء عن لبده ، ولم يخامره الأسف قط فى ذلك الموقف المرهوب إلا من أجل أحبائه وأعزائه الذين يراهم ويرونه ويسمع صيحتهم ويسمعونه . فقال وهو ينظر إلى الأخبية ومن فيها : « لله در ابن عباس فيما أشار به على ! » .

وجلس ليلة القتال فى خيمته يعالج سهامًا له بين يديه ويرتجز وأمامه ابنه العليل :

يا دهر أف لك من خليل　　كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحب وماجد قتيل　　والدهر لا يقنع بالبديل
والأمر فى ذاك إلى الجليل　　وكل حى سالك سبيلى

فرد ابنه عبرته لكيلا يزيده ألمًا على ألمه . وسمعته أخته زينب ، فلم تقو على حنانها ووجلها ، وخرجت إليه من خبائها حاسرة تنادى : « وا ثكلاه ! اليوم مات جدى رسول الله وأمى فاطمة الزهراء وأبى علىّ وأخى الحسن فليت الموت أعدمنى الحياة يا حسيناه ! يا بقية الماضين وثمالة الباقين ! » .

فبكى لبكائها ولم ينثن ذرة عن عزمه الذى بات عليه ، وقال لها :

— يا أخت ! لو ترك القطا لنام .. ولم يزل يناشدها .. ويعزيها وهو فى قرارة نفسه مستقر كالطود على مواجهة الموت وإباء التسليم أو النزول على « حكم ابن مرجانة » كما قال .. ثم احتملها مغشيًا عليها حتى أدخلها الخباء .

* * *

تزول الممالك وتدول الدول وتنجح المطامع أو تخيب وتحضر المطالب أو تغيب . وهذه الخلائق العلوية فى صدر الإنسان أحق بالبقاء من الممالك وما حوته ، ومن الدول وما حفظته أو ضيعته ، بل أحق بالبقاء من رواسى الأرض وكواكب السماء .

حرب النور والظلام

وكانت فئة الحسين صغيرة كما علمنا قد رصدت لها هنالك تلك الفئة الكبيرة التى تناقضها أتم ما يكون التناقض بين طرفين ، وتباعدها أبعد ما تكون المسافة بين قطبين ، فكل ما فيها أرضى مظلم مسف بالغ فى الإسفاف ، وليس فيها من النفحة العلوية نصيب .

أللمصادفات نظام وتدبير .. ؟ !

نحن لا نعلم إلا أنها مصادفات يخفى علينا ما بينها من الوشائج والصلات .. ولكنها — لذلك — هى الأعاجيب التى تستوقف النظر لعجبها العاجب ، وإن لم تستوقفه لما يفهمه فيها من نظام وتدبير .

فجيرة كربلاء كانت قديمًا من معاهد الإيمان بحرب النور والظلام ، وكان حولها

أناس يؤمنون بالنضال الدائم بين أورمزد واهرمان ، ولكنه كان فى حقيقته ضربًا من المجاز وفنًا من الخيال .

وتشاء مصادفات التاريخ إلا أن ترى هذه البقاع التى آمنت بأورمزد واهرمان حربًا هى أولى أن تسمى حرب النور والظلام من حرب الحسين ومقاتليه .

* * *

وهى عندنا أولى بهذه التسمية من حروب الإسلام والمجوسية فى تلك البقاع وما وراءها من الأرض الفارسية لأن المجوسى كان يدافع شيئًا ينكره .. ففى دفاعه معنى من الإيمان بالواجب كما تخيله ورآه ، ولكن الجيش الذى أرسله عبيد الله بن زياد لحرب الحسين كان جيشًا يحارب قلبه لأجل بطنه أو يحارب ربه لأجل واليه . إذ لم يكن فيهم رجل واحد يؤمن ببطلان دعوى الحسين أو رجحان حق يزيد ، ولم يكن فيهم كافر ينفح عن عقيدة غير عقيدة الإسلام ، إلا من طوى قلبه على كفر كمين هو يخفيه ، ولا نخالهم كثيرين .

ولو كانوا يحاربون عقيدة بعقيدة ، لما لصقت بهم وصمة النفاق ومسبة الأخلاق .. فعداوتهم ما علموا أنه الحق وشعروا أنه الواجب أقبح بهم من عداوة المرء ما هو جاهله بعقله ومعرض عنه بشعوره ، لأنهم يحاربون الحق وهم يعلمون .

ومن ثم كانوا فى موقفهم ذاك ظلامًا مطبقًا : ليس فيه من شعور الواجب بصيص واحد من عالم النور والفداء .. فكانوا حقًا فى يوم كربلاء قوة من عالم الظلام تكافح قوة من عالم النور .

أقربهم إلى العذر يومئذ من اعتذر بالفرق والرهبة لأنهم أكرهوه بالسيف على غير ما يريد .. فكان الجبن أشرف ما فيهم من خصال السوء .

وكان منهم أناس كتبوا إلى الحسين يستدعونه إلى الكوفة ليبايعوه على حرب يزيد ، فلما ندبهم عمر بن سعد للقائه وسؤاله أحجموا عما ندبهم له واستعفوه ، لأن جوابهم إن سألوه فى شأن مجيئه إليهم : إننى جئتكم ملبيًا ما دعوتم إليه !

وركب أناسًا منهم الفزع الدائم بقية حياتهم لأنهم عرفوا الإثم فيما اقترفوه عرفانًا لا تسعهم المغالطة فيه ، ومن هؤلاء رجل من بنى إبان بن دارم كان يقول :

— قتلت شابًا أمرد مع الحسين بين عينيه أثر السجود .. فما نمت ليلة منذ قتلته إلا أتانى فيأخذ بتلابيبى حتى يأتى جهنم فيدفعنى فيها ، فأصبح فما يبقى أحد فى الحى إلا سمع صياحى .

* * *

ورأى هذا الرجل صاحب له بعد حين . وقد تغير وجهه واسود لونه ، فقال له : « ما كدت أعرفك » ، وكان يعرفه جميلاً شديد البياض .

ومنهم من كان يتزاور عن الحسين فى المعمعة ، ويخشى أن يصيبه أو يصاب على يديه ، ولو أنهم حاربوه لأنهم علموا أنه أهل للمحاربة فلم يتزاوروا عنه ولم يتحاشوه لكانت الحرب هنالك حربًا بين رأيين ومذهبين وشجاعتين ، ولكنهم كشفوا أنفسهم بتحاشيهم إياه . فإذا هم يحاربون رأيهم الذى يدينون به ، ووليهم الذى يضمرون له الحرمة والكرامة ، وفى ذلك خزيهم الأثيم .

على أن الجبن والجشع لا يفسران كل ما اقترفه جيش عبيد الله من شر ولؤم فى أيام كربلاء .

فلا حاجة بالجبان ولا بالجشع إلى التمثيل والتنكيل أو التبرع بالإيذاء حيث لا تلجئه الضرورة إليه ، وليس قتل الطفل الصغير الذى يموت من العطش وهو على مورد الماء بالأمر الذى يلجىء إليه الجبن أو يلجىء إليه طلب المال ، وقد حدث فى أيام كربلاء من أمثال هذا البغى اللئيم شىء كثير رواه الأمويون ، ولم تقتصر روايته على الهاشميين والطالبيين أو أعداء بنى أمية !

* * *

وينبغى أن نفهم ذلك على وجه واحد لا سبيل إلى فهمه بغيره ، وهو نكسة الشر فى النفوس البشرية ، حين تلج بها مغالطة الشعور وحين تغالب عنانها حتى تعييها المغالبة فينطلق بها العنان .

فالرجل الخبيث المعرق فى الخباثة قد يتصرف فى خلوته تصرف الأنذال ثم لا يبالى أن يعرف نذالته وهو بنجوة من أعين الرقباء . ولكن أربعة الآلاف لا يتصارحون بالنذالة بينهم ولا يقول بعضهم لبعض أنهم يعملون ما يستحقون به التحقير والمهانة ولا تقبل لهم فيه معذرة ولا علالة . وإنما شأنهم فى هذه الحالة أن يصطنعوا الحماسة ويجاهدوا

التردد ما استطاعوا ليظهروا فى ثوب الغلاة المصدقين الذين لا يشكون لحظة فى صدق ما يعملون ، فيغمض الرجل منهم عينيه ويستتر بغشاء من النفاق حتى ليوشك أن يخدع نفسه عن طوية فؤاده .

وتلك لجاجة المغالطة فى الشعور .

أما مجاذبة النفس عنانها وانطلاقها بعد هذه المجاذبة المخفقة ، فالشواهد عليها كثيرة فيما نراه كل يوم .. يحاول الرجل أن يجتنب الخمر فلا يستطيع ، فإذا هو قد خلع العذار وغرق فيها ليله ونهاره غير مبال بما يقال كأنما هو القائل : « دع عنك لومى فإن اللوم إغراء » .

وتحب المرأة أن تستحيى وتتوارى من المسبة فى هواها ، ثم يغلبها هواها فإذا هى ألقت حياءها للريح ، وصنعت ما تحجم عنه التى لم تنازع نفسها قط فى هوى ، ولم تشعر قط بوطأة الخجل والاستتار .

واندفاع المتهجمين على الشر فى حرب كربلاء بغير داع من الحفيظة ولا ضرورة ملزمة تقضى بها شريعة القتال ، لهو الاندفاع الذى يسبر لنا عمق الشعور بالإثم فى نفوس أصحاب يزيد . وقد رأينا من قبل عمق الشعور بالحق فى أصحاب الحسين ، وما بنا من حاجة إلى البحث عن علة مثل هذه العلة لمن خلقوا مجرمين وخلقت معهم ضراوة الحقد والإيذاء لهذا الميدان وغير هذا الميدان ، كشمر بن ذى الجوشن ، ومن جرى مجراه .. فهؤلاء لا يصنعون غير صنيعهم الأثيم كلما وجدوا السبيل إليه .

على أنها — بعد كل هذا — حرب بين الكرم واللؤم ، وبين الضمير والمعدة ، وبين النور والظلام .. فشأنها على أية حال أن تصبح مجالاً من الطرفين لقصارى ما يبلغه الكرم وقصارى ما يبلغه اللؤم ، وقد بلغت فى ذلك أقصى مدى الطرفين .

* * *

ومن المتعذر بعد وقوف هاتين القوتين موقف المراقبة والمناجزة ، أن تتقصى أوائل القتال وتتبع ترتيب الحوادث واحدة بعد واحدة على حسب وقوعها .. فإن الأقوال فى سرد حوادث كربلاء لا تتفق على ترتيب واحد ، سواء كان هذا الترتيب فى رواية أنصار الحسين أو رواية أنصار يزيد .

إلا أن الترتيب الطبيعى يستبين للعقل من سبب الوقوف فى ذلك المكان ، وهو منع

الحسين أن ينصرف إلى سبيله وأن يرد الماء حتى يكرهه العطش إلى التسليم ، وكان الموقف كما وصفه أبو العلاء بعد ذلك بأربعة قرون :

منع الفتى هينًا فجر عظائما وحمى نمير الماء فانبعث الدم

ولم يمتنع طريق الماء فى بادىء الأمر دفعة واحدة لأن حراس المورد من جماعة عمر ابن سعد ، لم يكونوا على جزم بما يصنعون فى مواجهة الحسين وصحبه .. فلما اندفع بعض أصحاب الحسين إلى الماء بالقرب والأداوى ، مانعهم القوم هنيهة ثم أخلوا لهم سبيل النهر خوفًا وحيرة ، فشربوا وملأوا قربهم وأداواهم بما يغنيهم عن الاستقاء إلى حين .

والظاهر أن الشر كله كان فى حضور شمر بن ذي الجوشن على تلك الساحة ، متربصًا كل التربص بمن يتوانى فى حصار الحسين ومضايقته فيعزله ويعرضه لسوء الجزاء ، ثم يطمع من وراء ذلك أن يتولى قيادة الجيش وإمارة الرى بعد عزل عمر بن سعد بن أبى وقاص .. فبطل التردد شيئًا فشيئًا ، وتعذر على الحسين وأصحابه بعد الهجمة الأولى أن يصلوا إلى الماء . ولبثوا أيامًا وليس فى معسكرهم ذو حياة من رجل أو امرأة أو طفل أو حيوان إلا وهو يتلظى على قطرة ماء فلا ينالها ، ومنهم الطفل العليل والشيخ المكدود والحيوان الأعجم ، وصياح هؤلاء الظماء من حرقة الظمأ يتوالى على مسمع الحسين ليل نهار وهو لا يملك لهم غير الوصاية بالصبر وحسن المؤاساة .

وفى ذلك المأزق الفاجع ، نضحت طبائع اللؤم فى معسكر ابن زياد بشر ما تنضح به طبيعة لئيمة فى البنية الآدمية .. فاقترفوا من خسة الأذى ما تنزه عنه الوحوش الضاريات ، وجعلوا يتلهون ويتفكهون بما تقشعر منه الجلود وتندى له الوجوه ، ونكاد نمسك عن تسطيره أسفًا وامتعاضًا لولا أن القليل منه جزء لا ينفصل من هذه الفاجعة ، وبيان لما يلى من وقعها فى النفوس وتسلسل تراتها إلى أمد بعيد .

مآثم مخزية

فمن هذه المآثم المخزية أن الحسين برح به العطش فلم يباله .. ولكنه رأى ولده عبد الله يتلوّى من ألمه وعطشه ، وقد بحّ صوته من البكاء ، فحمله على يده يهم أن يسقيه ويقول للقوم : « اتقوا الله فى الطفل إن لم تتقوا الله فينا » فأوتر رجل من نبالة الكوفة قوسه ، ورمى الطفل بسهم وهو يصيح ليسمعه العسكران : « خذ اسقه هذا » .. فنفذ السهم إلى أحشائه ! .

وكانوا يصيحون بالحسين متهاتفين : « ألا ترى إلى الفرات كأنه بطون الحيات ؟! .. والله لا تذوقه حتى تموت ومن معك عطشًا » .

ولما اشتد عطش الحسين دنا من الفرات ليشرب ، فرماه حصين بن نمير بسهم وقع فى فمه .. فانتزعه الحسين وجعل يتلقى الدم بيديه فامتلأت راحتاه بالدم ، فرمى به إلى السماء وقد شخص ببصره إليها وهو يقول : « إن تكن حبست عنا النصر من السماء ، فاجعل ذلك لما هو خير منه ، وانتقم لنا من القوم الظالمين ! » .

وقد كان منع الماء — قبل الترامى بالسهام — نذيرًا كافيًا بالحرب ، يبيح الحسين أن يصيب منهم من يتعرض للإصابة .. ولكنه رأى شمر بن ذى الجوشن — أبغض مبغضيه المؤلبين عليه — يدنو من بيوته ويجول حولها ليعرف منفذ الهجوم عليها ، فأبى على صاحبه السلم بن عوسجة أن يرميه بسهم وقد أمكنه أن يصميه وهو من أسد الرماة .. لأنه كره أن يبدأهم بعداء .

* * *

وكأنه لمح منهم ضعف النية وسوء الدخلة فى الدفاع عن مولاهم ، وعلم أنهم لا يخلصون فى حبه ، ولا يؤمنون بحقه ، وأنهم يخدمونه للرغبة أو الرهبة ولا يخدمونه للحق والذمة .. فطمع أن يقرع ضمائرهم وينبه غفلة قلوبهم ، ورمى بآخر سهم من سهام الدعوة قبل أن يرمى بسهم واحد من سهام القتال . فخرج لهم يومًا بزى جده عليه السلام متقلدًا سيفه لابسًا عمامته ورداءه ، وأراهم أنه سيخطبهم ، فكان أول ما صنعوه دليلاً على صدق فراسته فيهم ، لأن رؤساءهم ومؤليبهم أشفقوا أن يتركوا له آذان القوم فينفذ إلى قلوبهم ويلمس مواقع الإقناع من ألبابهم . فضجوا بالصياح والجلبة وأكثروا من العجيج والحركة ليحجبوا كلامه عن أسماعهم ويتقوا أثر موعظته فيهم ، وهو بتلك الهيئة التى تغضى عنها الأبصار وتعنو لها الجباه .

ولكنه صابرهم حتى ملوا ، وملَّ إخوانهم ضجيجهم هذا الذى يكشفون به عن عجزهم وخوفهم ، ولا يوجب الثقة بدعواهم عند إخوانهم .. فهدأوا بعد لحظات وسمعوه بعد الحمد والصلاة : « انسبونى من أنا .. هل يحل لكم قتلى وانتهاك حرمتى ؟

ألست ابن بنت نبيكم ؟ .. أو لم يبلغكم ما قاله رسول الله لى ولأخى : هذان سيدا شباب أهل الجنة ؟ ويحكم ! .. أتطلبوننى بقتيل لكم قتلته أو مال لكم استهلكته ؟ » .

ثم نادى بأسماء أنصاره الذين استدعوه إلى الكوفة ثم خرجوا لحربه فى جيش ابن زياد . فقال : « يا شبث بن الربعى ! يا حجار بن أبجر ! يا قيس بن الأشعث ! يا يزيد ابن الحارث ! يا عمر بن الحجاج ! .. ألم تكتبوا إلىَّ أن قد أينعت الثمار واخضرت الجنبات ، وإنما تُقدم على جُند لك مجنَّد ؟ » .

فزلزلت الأرض تحت أقدامهم بهذه الكلمات وبلغ بها المقنع ممن فيه مطمع لإقناع ، وتحولت إلى صفه فئة منهم تعلم أنها تتحول إلى صف لن تجد فيه غير الموت العاجل ، واستطابت هذا الموت ولم تستطب البقاء مع ابن زياد لاغتنام الغنيمة وانتظار الجزاء من المناصب والأموال .

* * *

ولم تكن كلمة الحسين كل ما شهره عسكره من سلاح الدعوة قبل الاحتكام إلى السيف .. فقد كانت للبطل المجيد زهير بن القين كلماتٌ فى أهل الكوفة أمضى من السيوف والرماح حيث تصيب ، فركب فرسه وتعرض لهم قائلاً : « يا أهل الكوفة ! نذار لكم من عذاب الله نذار . إن حقًّا على المسلم نصيحة المسلم ، ونحن حتى الآن أخوة على دين واحد ما لم يقع بيننا وبينكم السيف ، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة وكنا نحن أمة وأنتم أمة .. إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد ﷺ لينظر ما نحن وأنتم عاملون ، وإنا ندعوكم إلى نصر حسين وخذلان الطاغية بن الطاغية عبيد الله بن زياد ، فإنكم لا تدركون منهما إلا سوءًا : يسملان أعينكم ، ويقطعان أيديكم وأرجلكم ويمثلان بكم ، ويرفعانكم على جذوع النخل ويقتلان أماثلكم وقراءكم أمثال حجر بن عدى وأصحابه وهانئ بن عروة وأشباهه » .

فوجم منهم من وجم ، وتوقح منهم من توقح ، على ديدن المريب المكابر إذا خلع العذار ولم يأنف من العار ، وتوعدوه وتوعدوا الحسين معه أن يقتلوهم أو يسلموهم صاغرين إلى عبيد الله بن زياد .

تخاذل وضعف

ولا يظهر من عدد الفريقين ساعة القتال أن المتحولين إلى معسكر الحسين كانوا كثيرين أو متلاحقين . ولكن بداءة التحول كانت مما يخيف ويزعج ، لأنها اشتملت على قائد كبير من قواد ابن زياد وهو الحر بن يزيد الذى أرسلوه فى أول الأمر ليحلئ الحسين عن دخول الكوفة ، وقد كان يحسب أن عمله ينتهى إلى هذه المراقبة ولا يعدوها إلى القتال وسفك الدم .. فلما تبين نيَّة القتال ، أقبل يدنو نحو عسكر الحسين قليلاً قليلاً ، وتأخذه رعدة وينتابه ألم شديد .. حتى راب أمره صاحبه المهاجر بن أوس فقال :

— والله إن أمرك لمريب .. ما رأيت منك قط مثل ما أراه الآن ، ولو قيل من أشجع أهل الكوفة ما عدوتك .

فباح له الرجل بما فى نفسه وقال له :

— إنى أخيِّر نفسى بين الجنة والنار ، ولا أختار على الجنة شيئًا ولو قطعت أو حرقت

ثم ضرب فرسه ، ولحق بالحسين وهو يعتذر قائلاً :

— لو علمت أنهم ينتهون إلى ما أرى ما ركبت مثل الذى ركبت ، وإنى قد جئتك تائبًا مما كان منى إلى ربى ، مؤاسيًا لك بنفسى حتى أموت بين يديك ! ..

ولن يخلو معسكر ابن زياد من مئات كالحر بن يزيد يؤمنون إيمانه ويودون لو يلحقون به إلى معسكر الحسين ، ويزعجهم أن يتحول أمامهم إلى المعسكر وهم ناظرون إليه ، لأنه يبكتهم ويكشف مغالطتهم بينهم وبين أنفسهم ويحضهم على الاقتداء به والتدبر فى أسباب ندمه ، لا لأنه ينتقص عددهم أو ينذر بالهزيمة فى ميدان القتال .. فكلهم ولا ريب يشعر بشعوره ويعتقد فى فضل الحسين على يزيد مثل اعتقاده ، وبعيد على العقل أن يصدق فى هؤلاء الشراذم أنهم قد أطاعوا يزيد لأنه صاحب بيعة حاصلة وأنهم قد « تأدبوا بأدب الدولة » أدبًا يغلب شعور الجماعة وإيمان المرء بحق الشريعة وحرمة البيت النبوى ، ويهون عليه قتل سبط النبى فى هذا السبيل ، وكيف وإن منهم لمن بايع

الحسين على البعد ودعاه إليه ليقود « الجند المجند » إلى قتال يزيد ؟ فكلامهم فى البيعة الحاصلة لغط يلوكونه بألسنتهم ولا يستر ما فى طويتهم ، وليس أثقل على أمثال هؤلاء من عبء المغالطة كلما تلجلج فى مكانه وحركته القدوة التى يريدونها ولا يقوون عليها ، كتلك القدوة الماثلة بصاحبهم الحر بن يزيد .

لا جرم كان أعظم الجيشين قلقًا وأشدهما حيرة وأعجلهما إلى طلب الخلاص من هذا المأزق الثقيل هو أكبر الفئتين وأقوى العسكرين .

شجاعة جند الحسين

كان هناك عسكران أحدهما صغير يلح عليه العطش والضيق ، ولكنه كان مطمئنًا إلى حقه يلقى الموت فى سبيله ويزيده العطش والضيق طمأنينة إلى هذا المصير .

والعسكر الآخر أكبر العسكرين ولكنه كان « يخون » نفسه فى ضمير كل فرد من أفراده ، وتملكه الحيرة بين ندم وخوف وتبكيت ومغالطة واضطراب ، يحز فى الأعصاب ويقذف بالمرء إلى الخلاص كيفما كان الخلاص .

وطال القلق على دخيلة عمر بن سعد فأطلقه سهمًا فى الفضاء كأنه كان متشبثًا بصدره فاستراح منه بانطلاقه .

فزحف إلى مقربة من معسكر الحسين ، وتناول سهمًا فرماه عن قوسه إلى المعسكر وهو يصيح :

— اشهدوا لى عند الأمير أننى أول من رمى الحسين .

ثم تتابعت السهام فبطلت حجة السلم وذهب كل تأويل فى نية القوم ، وقال الحسين وهو ينظر إلى السهام وينظر إلى أصحابه فقال :

— قوموا يا كرام فهذه رسل القوم إليكم .

وبذلك بدأ القتال .

وقد تأهب الحسين لهذه المنازلة المنتظرة ، وإن كان على انتظاره إياها قد تريث حتى يبدأوه بالعدوان من جانبهم ، وحتى يجب عليه الدفاع وجوبًا لا خلاف فيه .

فاختار له رابية يحتمى بها من ورائه ، ووسع وهدتها حتى أصبحت خندقًا لا يسهل عبوره .. فأوقد فيه النار ليمنع عليهم الالتفاف به من خلفه ، وهم فى كثرتهم التى ترجح عدة صحبه ستين ضعفًا قادرون على مهاجمته من جميع نواحيه .

وكان معه اثنان وثلاثون فارسًا وأربعون راجلاً .. وهم نيف وأربعة آلاف يكثر فيهم الفرسان وراكبو الإبل ويحملون صنوفًا مختلفة من السلاح .

ومع هذا التفاوت البعيد فى عدد الفريقين ، كان المعسكر القليل كفؤًا للعسكر الكثير لو جرى القتال على سنة المبارزة التى كانت دعوة مجابة فى ذلك العصر ، إذا اختارها أحد الفريقين .

فإن آل على جميعًا كانوا من أشهر العرب — بل من أشهر العرب والعجم — بالقوة البدنية والصبر على الجراح والاضطلاع بعناء الحرب ساعات بعد ساعات ، ومنهم من كان يلوى الحديد فلا يقيمه غيره ، ومنهم محمد بن الحنفية الذى صرع جبابرة القوة البدنية بين العرب والعجم فى زمانه ، ومن أشهر هؤلاء الجبابرة رجل كان فى أرض الروم يفخر به أهلها .. فأرسله ملكهم إلى معاوية يعجز به العرب عن مصارعته واتقاء بأسه . فجلس محمد بن الحنيفة وطلب من ذلك الجبار الرومى أن يقيمه ، فكان كأنما يحرك جبلاً لصلابة أعضائه وشدة أسره . فلما أقر الرجل بعجزه رفعه محمد فوق رأسه ثم جلد به الأرض مرات .

والحسين رضى الله عنه قد كان هو ومن معه من شباب آل علىّ ممن ورث هذه القوة البدنية كما ورثوا ثبات الجأش وحمية الفؤاد ، وكانوا كفؤًا لمبارزة الأنداد واحدًا بعد واحد حتى يفرغ جيش عبيد الله من فرسانه القادرين على المبارزة ، ولا يبقى منهم غير الهمل يتبددون فى منازلة الشجعان ، كما تتبدد السائمة المذعورة بالعراء .

وكان مع الحسين نخبة من فرسان العرب كلهم له شهرة بالشجاعة والبأس وسداد الرمى بالسهم ومضاء الضرب بالسيف ، ولن تكون صحبة الحسين غير ذلك بداهة وتقديرًا لا يتوقفان على الشهرة الذائعة والوصف المتواتر ، لأن مزاملة الحسين فى مثل تلك الرحلة هى وحدها آية على الشجاعة فى ملاقاة الموت وكرم النحيزة فى ملاقاة

الفتنة والإغراء .. فإذا جرى القتال كله مبارزة بين أمثال هؤلاء ومن يبرزون لهم من جيش عبيد الله ، فهم كفء للمنازلة وليس أملهم فى الغلب بضعيف .

وقد بدأ القتال بهجوم الخيل من قبل جيش ابن زياد ، فأشرع أصحاب الحسين لها رماحهم وجثوا على الركب ينتظرونها .. فلم تقم الخيل للرماح وأوشكت أن تجفل مولية بفرسانها .

فعدل الفريقان إلى المبارزة ، فلم يتعرض لها أحد من جيش ابن زياد إلا فشل أو نكص على عقبيه ، فخشى رؤوس الجيش عقبى هذه المبارزة التى لا أمل لهم فى الغلبة بها ، وصاح عمر بن الحجاج برفاقه :

— أتدرون من تقاتلون ؟ .. تقاتلون فرسان المصر وقومًا مستميتين . لا يبرز إليهم منكم أحد فإنهم قليل .. لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم .

فاستصوب عمر بن سعد مقاله ، ونهى الناس عن المبارزة .

فلما برز عابس بن أبى شبيب الشاكرى بعد ذلك وتحداهم للمبارزة ، تحاموه لشجاعته ووقفوا بعيدًا منه . فقال لهم عمر :

— ارموه بالحجارة ..

فرموه من كل جانب .. فاستمات وألقى بدرعه ومغفره وحمل على من يليه ، فهزمهم وثبت لجموعهم حتى مات .

وعجزت خيل القوم مع كثرتها عن مقاومة خيل الحسين ، وهى تنكشف كل ساعة عن فارس قتيل .. فبعث عروة بن قيس مقدم الفرسان فى جيش بن زياد يقول لعمر ابن سعد : « ألا ترى ما تلقى خيلى هذا اليوم من هذه العدة اليسيرة ؟ ابعث إليهم الرجال والرماة » فبعث إليه بخمسمائة من الرماة وعلى رأسهم الحصين بن نمير ، فرشقوا أصحاب الحسين بالنبل حتى عقروا الخيل وجرحوا الفرسان والرجال .

وكان أبو الشعثاء يزيد بن زياد الكندى ممن عدل إلى جيش الحسين وهو من أشهر رماة زمانه . فلما تكاثر عليهم رمى النبال والسهام ، جثا بين يدى الحسين وأرسل مائة سهم لم يكد يخيب منها خمسة أسهم .. وقاتل حتى مات .

وكان الذين عدلوا إلى عسكر الحسين أشد أنصاره عزمة فى القتال وهجمة على الموت ، ومنهم الحر بن يزيد الذى تقدم ذكره . فجاهد ما استطاع ليقنع أصحابه الأولين بالكف عن حرب الحسين أو بالعدول إلى صفِّه .. وقام على فرسه يخطب أهل الكوفة ويزجرهم ، فسكتوا هنيهة ثم رشقوه بالنبل فعقروا فرسه وجرحوه .. فما زال يطلب الموت ويتحرى من صفوفهم أكثفها جمعًا وأقتلها نبلاً حتى سقط مثخنًا بالجراح وهو ينادى الحسين : « السلام عليكم يا أبا عبد الله » .

ولم يكن من أصحاب الحسين إلا من يطلب الموت ويتحرى مواقعه وأهدافه .. فكان نافع بن هلال البجلى يكتب اسمه على أفواق نبله ويرسلها فيقتل بها ويجرح ، وقلما يخطىء مرماه . فأحاطوا به وضربوه على ذراعيه حتى كسرتا ، ثم أسروه والدم يسيل من وجهه ويديه ، فحسبوه يلين للوعيد ويجزع من التمثيل به ، فأسمعهم ما يكرهون وراح يستزيد غيظهم ويقول لهم : « لقد قتلت منكم اثنى عشر رجلاً سوى من جرحت ، ولو بقيت لى عضد وساعد لزدت » .

مصرع الحسين

واستهدف الحسين رضى الله عنه لأقواس القوم وسيوفهم ، فجعل أنصاره يحمونه بأنفسهم ولا يقاتلون إلا بين يديه . وكلما سقط منهم صريع ، أسرع إلى مكانه من يخلفه ليلقى حتفه على أثره .

فضاقت الفئة الكثيرة بالفئة القليلة ، وسول لهم الضيق بما يعانون من ثباتها أن يقوضوا الأخبية التى أوى إليها النساء والأطفال ليحيطوا بالعسكر القليل من جميع جهاته . ثم أخذوا فى إحراقها ، وأصحاب الحسين يصدونهم ويدافعونهم ، فرأى رضى الله عنه أن اشتغال أصحابه بمنعهم يصرفهم عن الاشتغال بقتالهم ، فقال لهم :

— دعوهم يحرقونها .. فإنهم إذ إحرقوها لا يستطيعون أن يجوزوا إليكم منها .

وظل على حضور ذهنه وثبات جأشه فى تلك المحنة المتراكبة التى تعصف بالصبر وتطيش بالألباب .. وهو جهد عظيم لا تحتويه طاقة اللحم والدم ، ولا ينهض به إلا أولو العزم من أندر من يلد آدم وحواء . فإنه رضى الله عنه كان يقاسى جهد العطش والجوع

والسهر ونزف الجراح ومتابعة القتال ، ويلقى باله إلى حركات القوم ومكائدهم ، ويدير لرهطه ما يحبطون به تلك الحركات ويتقون به تلك المكائد ، ثم هو يحمل بلاءه وبلاءهم .. ويتكاثر عليه وقر الأسى لحظة بعد لحظة كلما فجع بشهيد من شهدائهم . ولا يزال كلما أصيب عزيز من أولئك الأعزاء حمله إلى جانب إخوانه وفيهم رمق ينازعهم وينازعونه وينسون فى حشرجة الصدور ما هم فيه .. فيطلبون الماء ويحز طلبهم فى قلبه كلما أعياه الجواب ، ويرجع إلى ذخيرة بأسه فيستمد من هذه الآلام الكاوية عزمًا يناهض به الموت ويعرض به عن الحياة .. ويقول فى أثر كل صريع : « لا خير فى العيش من بعدك » ويهدف صدره لكل ما يلقاه .

وإنه لفى هذا كله ، وبعضه يهد الكواهل ويقصم الأصلاب .. إذا بالرماح والسيوف تنوشه من كل جانب ، وإذا بالقتل يتعدى الرجال المقاتلين إلى الأطفال والصبيان من عترته وآل بيته ، وسقط كل من معه واحدًا بعد واحد فلم يبق حوله غير ثلاثة يناضلون دونه ويتلقون الضرب عنه ، وهو يسبقهم ويأذن لمن شاء منهم أن ينجو بنفسه وقد دنت الخاتمة ووضح المصير .

وكان غلام من آل الحسين — هو عبد الله بن الحسن أخيه — ينظر من الأخبية ، فرأى رجلاً يضرب عمه بالسيف ليصيبه حين أخطأ زميله ، فهرول الغلام إلى عمه وصاح فى براءة بالرجل :

— يا ابن الخبيثة .. أتقتل عمى ؟

فتعمده الرجل بالسيف يريد قتله ، فتلقى الغلام ضربته بيده فانقطعت وتعلقت بجلدها .. فاعتنقه عمه وجعل يواسيه وهو مشغول بدفاع من يليه .

ثم سقط الثلاثة الذين بقوا معه ، فانفرد وحده بقتال تلك الزحوف المطبقة عليه ، وكان يحمل على الذين عن يمينه فيتفرقون ، ويشدُّ على الخيل راجلاً ويشق الصفوف وحيدًا ، ويهابه القريبون فيبتعدون ، ويهم المتقدمون بالإجهاز عليه ثم ينكصون .. لأنهم تحرجوا من قتله ، وأحب كل منهم أن يكفيه غيره مغبة وزره ، فغضب شمر بن ذى الجوشن وأمر الرماة أن يرشقوه بالنبل من بعيد ، وصاح بمن حوله :

— ويحكم ! .. ماذا تنتظرون بالرجل ؟ .. اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم ..

فاندفعوا إليه تحت عيني شمر مخافة من وشايته وعقابه .. وضربه زرعة بن شريك التيمي على يده اليسرى فقطعها ، وضربه غيره على عاتقه فخر على وجهه ، ثم جعل يقوم ويكبو وهم يطعنونه بالرماح ويضربونه بالسيف حتى سكن حراكه ، ووجدت بعد موته رضوان الله عليه ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير إصابة النبل والسهام ، وأحصاها بعضهم فى ثيابه فإذا هى مائة وعشرين .

ونزل خولى بن يزيد الأصبحي ليحتز رأسه ، فملكته رعدة فى يديه وجسده ، فنحاه شمر وهو يقول له :

— فت الله فى عضدك ! ..

واحتز الرأس وأبى إلا أن يسلمه إليه فى رعدته ، سخرية به وتماديًا فى الشر ، وتحديًا به لمن عسى أن ينعاه عليه ! وقضى الله على هذا الخبيث الوضر أن يصف نفسه بفعله لا يطرقه الشك والاتهام ، فكان ضغنه هذا كله ضغنًا لا معنى له ولا باعث إليه إلا أنه من أولئك الذين يخزيهم اللؤم فيسليهم بعض السلوى أن يؤلموا به الكرام ، ويجعلوه تحديًا مكشوفًا كأنه معرض للزهو والفخار ، وهم يعلمون أنه لا يفخر به ولا يزهى ! ولكنهم يبلغون به مأربهم إذا آلموا به من يحس فيهم الضعة والعار .

وبقيت ذروة من الحمية يرتفع إليها مرتفع .

وبقيت وهدة من الخسة ينحدر إليها منحدرون كثيرون .

فلم يكن فى عسكر الحسين كله إلا رمق واحد من الحياة باق فى رجل طعين مثخن بالجراح ، تركوه ولم يجهزوا عليه لظنهم أنه قد مات .

ذلك الرجل الكريم هو سويد بن أبى المطاع أصدق الأنصار وأنبل الأبطال .

فأبى الله لهذا الرمق الضعيف أن يفارق الدنيا بغير مكرمة يتم بها مكرمات يومه ، وتشتمل عليها النفوس الكثيرات فإذا هى حسبها من شرف مجد وثناء .

* * *

تنادى القوم بمصرع الحسين فبلغت صيحتهم مسمعه الذى أثقله النزع وأوشك أن يجهل ما يسمع . فلم يخطر له أن يسكن لينجو وقد ذهب الأمل وحمَّ الختام ، ولم يخطر له أنه ضعيف منزوف يعجل به القوم قبل أن ينال من القوم أهون منال ، ولم يحسب حساب شيء فى تلك اللحظة العصيبة إلا أن يجاهد فى القوم بما استطاع ، بالغًا ما بلغ من ضعف هذا المستطاع .

فالتمس سيفه فإذا هم قد سلبوه ، ونظر إلى شيء يجاهد به فلم تقع يده إلا على مدية صغيرة لا غناء بها مع السيوف والرماح .. ولكنه قنع بها وغالب الوهن والموت ، ثم وثب على قدميه من بين الموتى وثبة المستيئس الذى لا يفر من شيء ولا يبالى من يصيب وما يصاب . فتولاهم الذعر وشلت أيديهم التى كانت خليقة أن تمتد إليه ، وانطلق هو يثخن فيهم قتلاً وجرحًا حتى أفاقوا له من ذعرهم ومن شغلهم بضجتهم وغيمتهم . فلم يقووا عليه حتى تعاون على قتله رجلان .. فكان هذا حقًّا هو الكرم والمجد فى عسكر الحسين إلى الرمق الأخير .

خسة ووحشية

وكان حقًّا لا مجازًا ما توخيناه حين قلنا أنهما طرفان متناقضان ، وأنها حرب بين أشرف ما فى الإنسان وأوضع ما فى الإنسان .

فبينما كانَ الرجل فى عسكر الحسين ينهض من بين الموتى ولا يضن بالرمق الأخير فى سبيل إيمانه ، إذا بالآخرين يقترفون أسوأ المآثم فى رأيهم — قبل رأى غيرهم — من أجل غنيمة هينة لا تسمن ولا تغنى من جوع . فلو كان كل ما فى عسكر الحسين ذهبًا ودرًّا لما أغنى عنهم شيئًا وهم قرابة أربعة آلاف .. ولكنهم ، ما استيقنوا بالعاقبة — قبل أن يسلم الحسين نفسه الأخير — حتى كان همهم إلى الأسلاب التى يطلبونها حيث وجدوها ، فأهرعوا إلى النساء من بيت رسول الله ينازعونهن الحلى والثياب التى على أجسادهن ، لا يزعهم عن حرمات رسول الله وازع من دين أو مروءة . وانقلبوا إلى جثة الحسين يتخطفون ما عليها من كساء تخللته الطعون حتى أوشكوا أن يتركوها على الأرض عارية ، لولا سراويل لبسها رحمه الله ممزقة وتعمد تمزيقها ليتركوها على

جسده ولا يسلبوها . ثم ندبوا عشرة من الفرسان يوطئون جثته الخيل كما أمرهم ابن زياد ، فوطئوها مقبلين ومدبرين حتى رضوا صدره وظهره .

وقد يساق الغنم هنا معذرة للإثم بالغًا ما بلغ هذا من العظم ، وبالغًا ما بلغ ذلك من التفاهة . لكنهم فى الحقيقة قد ولعوا بالشر للشر من غير ما طمع فى مغنم كبير أو صغير . فحرموا الرى على الطفل الظامىء العليل وأرسلوا إلى أحشائه السهام بديلاً من الماء ، وقتلوا من لا غرض فى قتله وروعوا من لا مكرمة فى ترويعه .. فربما خرج الطفل من الأخبية ناظرًا وجلاً لا يفقه ما يجرى حوله ، فينقض عليه الفارس الرامح فوق فرسه ويطعنه الطعنة القاضية بمرأى من الأم والأخت والعمة والقريبة ، ولم تكن فى الذى حدث من هذا القبيل مبالغة يزعمونها كما زعم أجراء الذمم بعد ذلك عن حوادث كربلاء وجرائر كربلاء . فقد قتل فعلاً فى كربلاء كل كبير وصغير من سلالة علىّ رضى الله عنه ، ولم ينج من ذكورهم غير الصبى على زين العابدين .. وفى ذلك يقول سراقة الباهلى :

عين جودى بعبرة وعويل | واندبى ما ندبت آل الرسول
سبعة منهم لصلب علىّ | قد أبيدوا وسبعة لعقيل

وما نجا على زين العابدين إلا بأعجوبة من أعاجيب المقادير ، لأنه كان مريضًا على حجور النساء يتوقعون له الموت هامة اليوم أو غد ، فلما هم شمر بن ذى الجوشن بقتله ، نهاه عمر بن سعد عنه إما حياء من قرابة الرحم أمام النساء — وقد كان له نسب يجتمع به فى عبد مناف — وإما توقعًا لموته من السقم المضنى الذى كان يعانيه .. فنجا بهذه الأعجوبة فى لحظة عابرة ، وحفظ به نسل الحسين من بعده ، ولولا ذلك لباد .

ثم قطعوا الرؤوس ورفعوها أمامهم على الحراب ، وتركوا الجثث ملقاة على الأرض لا يدفنونها ولا يصلون عليها كما صلوا على جثث قتلاهم .. ومروا بالنساء حواسر من طريقها فولولن باكيات وصاحت زينب رضى الله عنها :

— يا محمداه ! .. هذا الحسين بالعراء وبناتك سبايا وذريتك مقتلة تسفى عليها الصبا .

فُوجم القوم مبهوتين وغلبت دموعهم قلوبهم .. فبكى العدو كما بكى الصديق ! ..

* * *

لم تنقض فى ذلك اليوم خمسون سنة على انتقال النبى محمد ﷺ من هذه الدنيا إلى حظيرة الخلود : محمد الذى بر بدينهم ودنياهم فلم ينقل من الدنيا حتى نقلهم من الظلمة إلى النور ، ومن حياة التيه فى الصحراء إلى حياة عامرة يسودون بها أمم العالمين . ثم هذه خمسون سنة لم تنقض بعد ، وإذا هم فى موكب جهير يجوب الصحراء إلى مدينة بعد مدينة : سباياه بنات محمد حواسر على المطايا وأعلامه رؤوس أبنائه على الحراب ، وهم داخلون به دخول الظافرين !

وبقيت الجثث حيث نبذوها بالعراء « تسفى عليها الصبا » .

فخرج لها مع الليل جماعة من بنى أسد كانوا ينزلون بتلك الأنحاء .. فلما أمنوا العيون بعد يوم أو يومين سروا مع القمراء إلى حيث طلعت بهم على منظر لا يطلع القمر على مثله — شرفًا ولا وحشة — فى الآباد بعد الآباد .

وكان يوم المقتل فى العاشر من المحرم .. فكان القمر فى تلك الليلة على وشك التمام .. فحفروا القبور على ضوئه ، وصلّوا على الجثث ودفنوها ، ثم غادروها هناك فى ذمة التاريخ . فهى اليوم مزار يطيف به المسلمون متفقين ومختلفين ، ومن حقه أن يطيف به كل إنسان ، لأنه عنوان قائم لأقدس ما يشرف به هذا الحى الآدمى بين سائر الأحياء .

فما أظلت قبة السماء مكانًا لشهيد قط هو أشرف من تلك القباب بما حوته من معنى الشهادة وذكرى الشهداء .

جريرة كربلاء

موطن الرأس

اتفقت الأقوال فى مدفن جسد الحسين عليه السلام ، وتعددت أيما تعدد فى موطن الرأس الشريف .

فمنها أن الرأس قد أعيد بعد فترة إلى كربلاء فدفن مع الجسد فيها ..

ومنها أنه أرسل إلى عمرو بن سعيد بن العاص والى يزيد على المدينة ، فدفنه بالبقيع عند قبر أمه فاطمة الزهراء .

ومنها أنه وجد بخزانة ليزيد بن معاوية بعد موته ، فدفن بدمشق عند باب الفراديس .

ومنها أنه كان قد طيف به فى البلاد حتى وصل إلى عسقلان ، فدفنه أميرها هناك وبقى بها حتى استولى عليها الإفرنج فى الحروب الصليبية .. فبذل لهم الصالح طلائع وزير الفاطميين بمصر ثلاثين ألف درهم على أن ينقله إلى القاهرة حيث دفن بمشهده المشهور . قال الشعرانى فى طبقات الأولياء : « إن الوزير صالح طلائع بن رزيك خرج هو وعسكره حفاة إلى الصالحية ، فتلقى الرأس الشريف ووضعه فى كيس من الحرير الأخضر على كرسى من الأبنوس وفرش تحته المسك والعنبر والطيب ، ودفن فى المشهد الحسينى قريبًا من خان الخليلى فى القبر المعروف » .

وقال السائح الهروى فى الإشارات إلى أماكن الزيارات : « وبها – أى عسقلان – مشهد الحسين رضى الله عنه : كان رأسه بها ، فلما أخذتها الفرنج نقله المسلمون إلى مدينة القاهرة سنة تسع وأربعين وخمسمائة » .

وفى رحلة ابن بطوطة أنه سافر إلى عسقلان « وبه المشهد الشهير حيث كان رأس الحسين بن علىّ عليه السلام ، قبل أن ينقل إلى القاهرة » .

وذكر سبط بن الجوزى فيما ذكر من الأقوال المتعددة أن الرأس بمسجد الرقة على الفرات ، وأنه لما جيء به بين يدى يزيد بن معاوية قال : « لأبعثنه إلى آل أبى معيط عن رأس عثمان » وكانوا بالرقة ، فدفنوه فى بعض دورهم ثم دخلت تلك الدار بالمسجد الجامع ، وهو إلى جانب سوره هناك .

فالأماكن التى ذكرت بهذا الصدد ستة فى ست مدن هى : المدينة ، وكربلاء ، والرقة ، ودمشق ، وعسقلان ، والقاهرة ، وهى تدخل فى بلاد الحجاز والعراق والشام وبيت المقدس والديار المصرية . فإن لم تكن هى الأماكن التى دفن فيها رأس الحسين فهى الأماكن التى تحيا بها ذكراه لا مراء .

وللتاريخ اختلافات كثيرة ، نسميها بالاختلافات اللفظية أو العرضية ، لأن نتيجتها الجوهرية سواء بين جميع الأقوال ، ومنها الاختلاف على مدفن رأس الحسين عليه السلام . فأيّا كان الموضع الذى دفن به ذلك الرأس الشريف ، فهو فى كل موضع أهل للتعظيم والتشريف . وإنما أصبح الحسين — بكرامة الشهادة وكرامة البطولة وكرامة الأسرة النبوية — معنى يحضره الرجل فى صدره وهو قريب أو بعيد من قبره . وإن هذا المعنى لفى القاهرة ، وفى عسقلان ، وفى دمشق ، وفى الرقة ، وفى كربلاء ، وفى المدينة ، وفى غير تلك الأماكن سواء .

وقاحة ابن زياد

ويقل الاختلاف أو يسهل التجاوز عنه كذلك فيما حدث بين فاجعة كربلاء ولقاء يزيد .

فالمتواتر الموافق لسير الأمور أنهم حملوا الرؤوس والنساء إلى الكوفة ، فأمر ابن زياد أن يطاف بها فى أحياء الكوفة ثم ترسل إلى يزيد .

وكانت فعلة يداورونها بالتوقح فيها على سنة المأخوذ الذى لا يملك مداراة ما فعل . فبات خولى بن يزيد ليلته بالرأس فى بيته ، وهو يمنى نفسه بغنى الدهر كما قال . فأقسمت امرأة له حضرمية : « لا يجمع رأسها ورأسه بيت وفيه رأس ابن رسول الله » .

ثم غدا إلى قصر ابن زياد وكان عنده يزيد بن أرقم من أصحاب رسول الله .. فرآه ينكث ثنايا الرأس حين وُضع أمامه فى أجانه ، فصاح به مغضبًا :

— ارفع قضيبك عن هاتين الثنيتين .. فهو الذى لا إله غيره لقد رأيت شفتى رسول الله على هاتين الشفتين يقبّلهما ..

وبكــى ..

فهزىء به ابن زياد وقال له :

— لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك ، لضربت عنقك !

فخرج زيد وهو ينادى فى الناس غير حافل بشىء :

— أنتم معشر العرب العبيد بعد اليوم .. قتلتم ابن فاطمة وآثرتم ابن مرجانة ، فهو يقتل شراركم ويستعبد خياركم .

وأدخلت السيدة زينب بنت علىّ رضى الله عنها ، وعليها أرذل ثيابها ومعها عيال الحسين وإماؤها .. فجلست ناحية لا تتكلم ولا تنظر إلى ما أمامها . فسأل ابن زياد :

— من هذه التى انحازت ناحية ومعها نساؤها ؟

فلم تجبه .. فأعاد سؤاله ثلاثًا وهى لا تجيبه ، ثم أجابت عنها إحدى الإماء :

— هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله ﷺ .

فاجترأ ابن زياد قائلاً :

— الحمد لله الذى فضحكم وقتلكم وأبطل أحدوثتكم .

وقد كانت زينب رضى الله عنها حقًّا جديرة بنسبها الشريف فى تلك الرحلة الفاجعة التى تهد عزائم الرجال .. كانت كأشجع وأرفع ما تكون حفيدة محمد وبنت علىّ وأخت الحسين . وكتب لها أن تحفظ بشجاعتها وتضحيتها بقية العقب الحسينى من الذكور .. ولولاها لانقرض من يوم كربلاء .

فلم تمهل ابن زياد أن ثارت به قائلة :

— الحمد لله الذى أكرمنا بنبيه وطهرنا من الرجس تطهيرًا .. إنما يفضح الفاسق ويكذب الفاجر ، وهو غيرنا والحمد لله .

فقال ابن زياد :

— قد شفى الله نفسى من طاغيتك والعصاة .

فغلبها الحزن والغيظ من هذا التشفى الذى لا ناصر لها منه ، وقالت :

— لقد قتلت كهلى ، وأبدت أهلى ، وقطعت فرعى واجتثثت أصلى ، فإن يشفك هذا فقد اشتفيت .

فتهاتف ابن زياد ساخرًا وقال :

— هذه سجاعة .. لعمرى لقد كان أبوها سجاعًا شاعرًا .

فقالت زينب :

— إن لى عن السجاعة لشغلاً .. ما للمرأة والسجاعة ؟

على زين العابدين

ثم نظر ابن زياد إلى غلام عليل هزيل مع السيدة زينب فسأله :

— من أنت ؟

قال : علىّ بن الحسين

قال : أو لم يقتل الله علىّ بن الحسين ؟

قال : كان لى أخ يسمى عليًّا قتله الناس .

فأعاد ابن زياد قوله : الله قتله .

فقال علىّ : الله يتوفى الأنفس حين موتها ، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله .

فأخذت زيادًا عزة الإثم وانتهره قائلاً :

— وبك جرأة لجوابى !

وصاح الخبيث الأثيم بجنده :

— اذهبوا به فاضربوا عنقه ..

فجاشت بعمّة الغلام قوة لا يردها سلطان ، ولا يرهبها سلاح .. لأنها قوة من هان لديه الموت وهانت عليه الحياة ، فاعتنقت الغلام اعتناق من اعتزم ألا يفارقه إلا وهو جثة هامدة ، وأقسمت لئن قتلته لتقتلنى معه . فارتد ابن زياد مشدوهًا وهو يقول متعجبًا :

— يا للرحم .. إنى لأظنها ودت أنى قتلتها معه .

ثم قال : « دعوه لما به » .. كأنه حسب أن العلة قاضية عليه .

وعلىّ هذا هو زين العابدين جد كل منتسب إلى الحسين عليهما السلام ، وكان كما قال ابن سعد فى الطبقات : « ثقة كثير الحديث عاليًا رفيعا ورعًا » ، وكما قال يحيى ابن سعيد : « أفضل هاشمى رأيته فى المدينة » .

ولولا استماتة عمته كما ترى ، لقد كانت تذهب بهذه البقية الباقية كلمة على شفتى ابن زياد !

الرأس عند يزيد

ولما قضى الخبيث نهمة كيده من الطواف برأس الحسين فى الكوفة وأرباضها ، أنفذه ورؤوس أصحابه إلى دمشق مرفوعة على الرماح ، ثم أرسل النساء والصبيان على الأقتاب ، وفى الركب على زين العابدين مغلول إلى عنقه يقوده شمر بن ذى الجوشن ومحضر بن ثعلبة .. فتلاحق الركبان فى الطريق ودخلا الشام معًا إلى يزيد .

وتكرر منظر القصر بالكوفة فى دمشق عند يزيد .. ولا نستغرب أن يتكرر بعضه حتى يظن أنه قد وقع فى التاريخ خلط بين المنظرين ، لأن المناسبة فى هذا المقام تستوحى ضربًا واحدًا من التعقيب وضربًا واحدًا من الحوار .

فارتاع من بمجلس يزيد من نبأ المقتلة فى كربلاء حين بلغتهم ، وقال يحيى بن الحكم وهو من الأمويين :

لهام بجنب الطَّــــف أدنى قرابـــــة
من ابن زياد العبد ذى الحسب الوغل
سميـــة أمسى نسلهـــا عـــدد الحصى
وبنت رسول الله ليست بـذى نسل

فأسكته يزيد .. وقال وهو يشير إلى الرأس وينكث بقضيب فى يده : « أتدرون من أين أتى هذا ؟ .. إنه قال : « أبى على خير من أبيه وأمى فاطمة خير من أمه ، وجدى رسول الله خير من جده وأنا خير منه وأحق بهذا الأمر » .. فأما أبوه فقد تحاج أبى وأبوه إلى الله وعلم الناس أيهما حكم له ، وأما أمه فلعمرى فاطمة بنت رسول الله خير من أمى ، وأما جده فلعمرى ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلاً ولا ندًا ، ولكنه أتى من قبل فقهه ولم يقرأ : **﴿قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾** .

وهو كلام ينسب مثله إلى معاوية فى رده على حجج علىّ فى الخلافة .. ولعل يزيد قد استعاره من كلام أبيه وزاد عليه .

ونظر بعض أهل الشام إلى السيدة فاطمة بنت الحسين — وكانت جارية وضيئة — فقال ليزيد : « هب لى هذه » ، فأرعدت وأخذت بثياب عمتها .. فكان لعمتها فى الذود عنها موقف كموقفها بقصر الكوفة ، ذيادًا عن أخيها زين العابدين ، وصاحت بالرجل :

— كذبت ولؤمت .. ما ذلك لك ولا له .

فتغيظ يزيد وقال : « كذبت ، إن ذلك لى .. ولو شئت لفعلت » .

قالت : « كلا والله .. ما جعل الله لك ذلك ، إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا » .

فاشتد غيظ يزيد وصاح بها : « إياى تستقبلين بهذا ؟ .. إنما خرج من الدين أبوك وأخوك » .

قالت : « بدين الله ودين أبى وأخى وجدى اهتديت أنت وأبوك وجدك » .

فلم يجد جوابًا غير أن يقول : « بل كذبت يا عدوة الله » .

فقالت : « أنت أمير تشتم ظالمًا ، وتقهر بسلطانك » .

فأطرق وسكت ..

وأدخل عليّ بن الحسين مغلولاً ، فأمر يزيد بفك غله وقال له :

— ايه يا ابن الحسين .. أبوك قطع رحمى وجهل حقى ونازعنى سلطانى ، فصنع الله به ما رأيت .

قال عليّ :

— ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور . فتلا يزيد الآية : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم** ﴾ . ثم زوى وجهه وترك خطابه .

وكان لقاء نساء يزيد خيرًا من لقائه .. فواسين السيدة زينب والسيدة فاطمة ومن معهما ، وجعلن يسألنهن عما سلبنه بكربلاء فيرددن إليهن مثله وزيادة عليه .

وأحب يزيد أن يستدرك بعض ما فاته ، فلجأ إلى النعمان بن بشير واليه الذى عزله من الكوفة لرفقه بدعاة الحسين .. وأمره أن يسير آل الحسين إلى المدينة ويجهزهم بما يصلحهم . وقيل أنه ودع زين العابدين ، وقال له : « لعن الله ابن مرجانة .. أما والله لو أنى صاحب أبيك ما سألنى خصلة أبدًا إلا أعطيته إياها ، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدى . ولكن الله قضى ما رأيت يا بنى ! .. كاتبنى من المدينة ، وأنه إلى كل حاجة تكون لك » .

تبعة يزيد

والناس فى تقدير التبعة التى تصيب يزيد من عمل ولاته مشارب وأهواء ، يرجع كل منهم إلى مصدر من مصادر الرواية فيبنى عليه حكمه .

فمنهم من يرى أنه برىء من التبعة كل البراءة .. ومنهم من يرى أنه أقر فعلة ابن

زياد ثم ندم عليها .. ومنهم من يقول أنه قد أمر بكل ما اقترفه ابن زياد وتوقع حدوثه ولم يمنعه وهو مستطيع أن يمنعه لو شاء .

والثابت الذى لا جدال فيه ، أن يزيد لم يعاقب أحدًا من ولاته كبر أو صغر على شيء مما اقترفوه فى فاجعة كربلاء ، وأن سياسته فى دولته بعد ذلك كانت هى سياسة أولئك الولاة على وتيرة واحدة مما حدث فى كربلاء ، فاستباحة المدينة — دار النبى ﷺ — وتحكيم مسلم بن عقبة فى رجالها ونسائها ، ليست بعمل رجل ينكر سياسة كربلاء بفكره وقلبه ، أو سياسة رجل تجرى هذه الحوادث على نقيض تدبيره وشعوره وما زال يزيد وأخلافه يأمرون الناس بلعن علىّ والحسين وآلهما على المنابر فى أرجاء الدولة الإسلامية ، ويستفتون من يفتيهم بإهدار دمهم وصواب عقابهم بما أصابهم . ومن تجب لعنته على المنابر بعد موته بسنين ، فقتله جائز أو واجب فى رأى لاعنيه .

ومن أفرط فى سوء الظن ، رجح عنده أن عبيد الله كان على إذن مستور بكل ما ماصنع ، ويملى لهم فى هذا الظن أن استئصال ذرية الحسين من الذكور خطة تهم يزيد لوراثة الملك فى بيته وعقبه ، ويفيده أن يقدم عليها مستترًا من وراء ولاته ثم ينصل منها ويلقى بتبعتها عليهم . ولو لم يكن ذلك لكان عجيبًا أن توكل حياة الحسين وأبنائه وآله إلى والى الكوفة بغير توجيه من سيده ومولاه .. فقد كان الزمن الذى انقضى منذ خروج الحسين من مكة إلى نزوله بالطف على الفرات كافيًا لبلوغ الخبر إلى يزيد ورجوع الرسل بالتوجيه الضرورى فى هذا الموقف لوالى الكوفة وغيره من الولاة ، فإن لم يكن الأمر تدبيرًا متفقًا عليه فهو المساءة التى تلى ذلك التدبير فى السوء والشناعة ، وهى مساءة التهاون الذى لا تستقيم على مثله شئون دولة . وقد روى ابن شريح اليشكرى أن عبيد الله صارحه بعد موت يزيد فقال : « أما قتلى الحسين فإنه أشار إلى يزيد بقتله أو قتلى فاخترت قتله » وهو كلام متهم لا تقوم به حجة على غائب قضى نحبه .

ويبدو لنا أن الظن بتهاون يزيد هنا أقرب إلى الظن بإيعازه وتدبيره .. لأنه جرى عليه طوال حكمه وألقى حبل ولاته على غاربهم وهو لاه بصيده وعبثه ، وأنه ربما ارتاح فى سريرته بادئ الأمر إلى فعلة ابن زياد وأعوانه .. ولكنه ما عتم أن رأى بوادر العواقب

توشك أن تطبق عليه بالوبال من كل جانب ، حتى تيقظ من غفلته بعد فوات الوقت فعمد إلى المحاسنة والاستدراك جهد ما استطاع ، ولم يكن فى يقظته على هذا معتصمًا بالحكمة والسداد .

ولقد رأى البوادر منه غير بعيد ، ولما تنقض ساعات على ذيوع الخبر فى بيته قبل عاصمة ملكه .. فنعى ابن الحكم فعلة ابن زياد ، وناح نساؤه مشفقات من هول ما سمعن ورأين ، وبكى ابنه الورع الصالح معاوية فكان يقول إذا سئل : « نبكى على بنى أمية لا على الماضين من بنى هاشم » .

ومهما تكن غفلة يزيد ، فما أحد قط يلمح تلك البوادر ثم يجهل أنها ضربة هوجاء لن تذهب بغير جريرة ، ولن تهون جريرتها فى الحاضر القريب ولا فى الآتى البعيد .

والواقع أنها قد استتبعت بعدها جرائر شتى لا جريرة واحدة ، وما تنقضى جرائرها إلى اليوم .

فلم تنقض سنتان حتى كانت المدينة فى ثورة حنق جارف يقتلع السدود ويخترق الحدود .. لأنهم حملوا إليها خبر الحسين محمل التشهير والشماتة . وضحك واليهم عمرو ابن سعيد حين سمع أصوات البكاء والصراخ من بيوت آل النبى ، فكان يتمثل قول عمرو بن معد يكرب :

عجت نساء بنى زياد عجة   كعجيج نسوتنا غداة الأرنب

وكانت بنت عقيل بن أبى طالب تخرج فى نسائها حاسرة وتنشد :

ماذا تقولون إن قال النبى لكم :
ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتى وبأهلى بعد مفتقدى
منهم أسارى ومنهم ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائى إذ نصحت لكم
أن تخلفونى بسوء فى ذوى رحمى

فكان الأمويون يجيبون بمثل تلك الشماتة ، ويقولون كما قال عمرو بن سعيد : « ناعية كناعية عثمان » .

ولا موضع للشماتة هنا بالحسين ، لأنه قد أصيب على باب عثمان وهو يذود عنه ويجتهد فى سقيه وسقى آل بيته .. ولكنها شماتة هوجاء لا تعقل ما تصنع ولا ما تقول .

ثورة المدينة

وللقدر المتاح لجت بالولاة الأمويين رغبتهم فى تلفيق « المظاهرات الحجازية » ، فلم يرعوا ما بأهل المدينة من الحزن اللاعج والأسى الدفين . وجعلوا همهم كله أن يكرهوا القوم على نسيان خطب الحسين واصطناع الولاء المغتصب ليزيد . فحملوا إلى دمشق وفدًا من أشراف المدينة لم يلبثوا أن عادوا إليها منكرين لحكم يزيد مجمعين على خلع بيعته ، وراحوا يقولون لأهل المدينة : « إنا قدمنا من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويضرب بالطنابير ، ويعزف عنده القيان ، ويلعب بالكلاب ، ويسمر عنده الخراب » .

وقال رئيسهم عبد الله بن حنظلة الأنصارى وهو ثقة عند القوم لصلاحه وزهده : « لو لم أجد إلا بنى هؤلاء – وكان له ثمانية بنين – لجاهدت بهم . وقد أعطانى وما قبلت عطاءه إلا لأتقوى به » .

والتهبت نار الثورة بالألم المكظوم والدعوة الموصولة ، فأخرج المدنيون والى يزيد وجميع من بالمدينة من الأمويين ومواليهم وأعلنوا خلعهم للبيعة .

وصدق ابن حنظلة النية ، فكان يقدم بنيه واحدًا بعد واحد حتى قتلوا جميعًا ، وقتل بعدهم أنفة من حياة يسام فيها الطاعة ليزيد وولاته .

وبدا فى ثورة المدينة أن يزيد لم يستفد كثيرًا ولا قليلاً من عبرة كربلاء . لأنه سلط على أهلها رجلاً لا يقل فى لؤمه وغله وسوء دخلته ، وولعه بالشر والتعذيب ، وعبثه بالتقتيل والتمثيل ، عن عبيد الله بن زياد ، وهو مسلم بين عقبة المرى . فأمره أن يسوم الثائرين البيعة بشرطه ، وأن يستبيح مدينتهم ثلاثة أيام إن لم يبادروا إلى طاعته ، وكان شرطه الذى سامهم إياه بعد اقتحام المدينة وانقضاء الأيام الثلاثة التى انتظر فيها طاعتهم « إنهم يبايعون أمير المؤمنين على أنهم خول له يحكم فى دمائهم وأموالهم ما شاء » .

وإذا كان شيء أثقل على النفوس من هذا الشرط ، وأقبح فى الظلم من استباحة الأرواح والأعراض فى جوار قبر النبى ﷺ .. فذاك هو ولاية هذا النكال بيد مجرم مفطور على الغل والضغينة مثل مسلم بن عقبة ، كأنه يلقى على الناس وزر مرض النفس ومرض الجسد ومرض الدم الذى أبلاه ، ولم يبل ما فى طويته من رجس ومكيدة . « فاستعرض أهل المدينة بالسيف جزرًا كما يجزر القصاب الغنم ، حتى ساخت الأقدام فى الدم وقتل أبناء المهاجرين والأنصار » .

وأوقع كما قال ابن كثير « من المفاسد العظيمة فى المدينة النبوية ما لا يحد ولا يوصف » .. ولم يكفه أن يسفك الدماء ويهتك الأعراض حتى يلتذ بإثارة الآمال والمخاوف فى نفوس صرعاه قبل عرضهم على السيف ، فلما جاءوه بمعقل بن سنان صاحب رسول الله هش له وتلقاه بما يطمعه ، ثم سأله : « أعطشت يا معقل ؟ حوصوا له شربة من سويق اللوز الذى زودنا به أمير المؤمنين » .. فلما شربها قال له : « أما والله لا تبولها من مثانتك أبدًا .. وأمر بضرب عنقه .. » .

ويروى ابن قتيبة أن عدد من قتل من الأنصار والمهاجرين والوجوه ألف وسبعمائة ، وسائرهم من الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان .

وحادث واحد من حوادث التمثيل والاستباحة يدل على سائر الحوادث من أمثاله .. دخل رجل من جند مسلم بن عقبة على امرأة نفساء من نساء الأنصار ومعها صبى لها . فقال : « هل من مال ؟ » .

قالت : « لا .. والله ما تركوا لنا شيئًا » .

قال : « والله لتخرجن إلىّ شيئًا أو لأقتلنك وصبيك هذا » .

فقالت له : « ويحك .. إنه ولد ابن أبى كبشة الأنصارى صاحب رسول الله » . فأخذ برجل الصبى والثدى فى فمه ، فجذبه من حجرها فضرب به الحائط فانتثر دماغه على الأرض .

وهو مثل من أمثال قد تكررت بعدد تلك البيوت التى قتل فيها أولئك الألوف من النسوة والأطفال والآباء والأمهات .

وقد مات هذا السفاح وهو فى طريقه إلى مكة يهم بأن يعيد بها ما بدأ بالمدينة .. فدفن فى الطريق وتعقبه بعض الموتورين من أهل المدينة فنبشوا قبره وأحرقوه .

جريرة العدل

ولم تنقض سنوات أربع على يوم كربلاء حتى كان يزيد قد قضى نحبه ، ونجمت بالكوفة جريرة العدل التى حاقت بكل من مد يدًا إلى الحسين وذويه .

فسلط الله على قاتلى الحسين كفؤًا لهم فى النقمة والنكال يفل حديدهم بحديده ويكيل لهم بالكيل الذى يعرفونه . وهو المختار بن أبى عبيد الثقفى داعية التوابين من طلاب ثأر الحسين . فأهاب بأهل الكوفة أن يكفروا عن تقصيرهم فى نصرته ، وأن يتعاهدوا على الأخذ بثأره فلا يبقين من قاتليه أحد ينعم بالحياة ، وهو دفين مذال القبر فى العراء .

فلم ينج عبيد الله بن زياد ، ولا عمر بن سعد ، ولا شمر بن ذى الجوشن ، ولا الحصين بن نمير ، ولا خولى بن يزيد ، ولا أحد ممن أحصيت عليهم ضربة أو كلمة أو مدوا أيديهم بالسلب والمهانة إلى الموتى أو الأحياء .

وبالغ فى النقمة فقتل وأحرق ومزق وهدم الدور وتعقب الهاربين ، وجوزى كل قاتل أو ضارب أو ناهب بكفاء عمله .. فقتل عبيد الله وأحرق ، وقتل شمر بن ذى الجوشن وألقيت أشلاؤه للكلاب ، ومات مئات من رؤسائهم بهذه المثلات وألوف من جندهم وأتباعهم مغرقين فى النهر أو مطاردين إلى حيث لا وزر لهم ولا شفاعة . فكان بلاؤهم بالمختار عدلاً لا رحمة فيه ، وما نحسب قسوة بالآثمين سلمت من اللوم أو بلغت من العذر ما بلغته قسوة المختار .

ولحقت الجريرة الثالثة بأعقاب الجريرة الثانية فى مدى سنوات معدودات .

فصمد الحجاز فى ثورته أو فى تنكره لبنى أمية إلى أيام عبد الملك بن مروان ، وكان أحرج الفريقين من سبق إلى أحرج العملين . وأحرج العملين ذاك الذى دفع إليه — أو اندفع إليه — الحجاج عامل عبد الملك .. فنصب المنجنيق على جبال مكة ، ورمى الكعبة بالحجارة والنيران فهدمها وعفى على ما تركه منها جنود يزيد بن معاوية .. فقد كان

قائده الذى خلف مسلم بن عقبة وذهب لحصار مكة أول من نصب لها المنجنيق وتصدى لها بالهدم والإحراق .

وما زالت الجرائر تتلاحق حتى تقوض من وطأتها ملك بنى أمية ، وخرج لهم السفاح الأكبر وأعوانه فى دولة بنى العباس .. فعمّوا بنقمتهم الأحياء والموتى ، وهدموا الدور ، ونبشوا القبور ، وذكر المنكوبون بالرحمة فتكات المختار بن أبى عبيد ، وتجاوز الثأر كل مدى خطر على بال هاشم وأمية يوم مصرع الحسين .

لقد كانت ضربة كربلاء ، وضربة المدينة ، وضربة البيت الحرام ، أقوى ضربات أمية لتمكين سلطانهم وتثبيت بنيانهم وتغليب ملكهم على المنكرين والمنازعين .. فلم ينتصر عليهم المنكرون والمنازعون بشىء كما انتصروا عليهم بضربات أيديهم ، ولم يذهبوا بها ضاربين حقبة ، حتى ذهبوا بها مضروبين إلى آخر الزمان .

وتلك جريرة يوم واحد هو يوم كربلاء .. فإذا بالدولة العريضة تذهب فى عمر رجل واحد مديد الأيام ، وإذا بالغالب فى يوم كربلاء أخسر من المغلوب إذا وضعت الأعمار المنزوعة فى الكفتين .

نهاية المطاف

مَن الظافر ؟

غبن أن يفوت الإنسان جزاؤه الحق على عمله وخلقه ..

وأثقل منه فى الغبن أن ينقلب الأمر فيجزى المحسن بالإساءة ، ويجزى المسىء بالإحسان ..

وقد تواضع الناس منذ كانوا على معنى للتاريخ والأخلاق ، ووجهة للشريعة والدين .

والجزاء الحق هو الوجهة الواحدة التى تلتقى فيها كل هذه المقاصد الرفيعة .. فإذا بطل الجزاء الحق ففى بطلانه الإخلال كل الإخلال بمعنى التاريخ والأخلاق ، ولباب الشرائع والأديان . وفيه حكم على الحياة بالعبث وعلى العقل الإنسانى بالتشويه والخسار .

والجزاء الحق غرض مقصود لذاته يحرص عليه العقل الإنسانى كرامة لنفسه ويقينًا من صحته وحسن أدائه ، كالنظر الصحيح نحسبه هو غرضًا للبصر يرتاح إلى تحقيقه ويحزن لفواته وإن لم يكن وراء ذلك ثواب أو عقاب ، لأن النظر الصحيح سلامة محبوبة والإخلال به داء كريه .

ولا يستهدف هذا القسطاس المستقيم لمحنة من محنه التى تزرى بكرامة العقل الإنسانى ، كاستهدافه لها وهو فى مصطدم التضحية والمنافع ، أو فى الصراع بين الشهداء وأصحاب الطمع والحيلة .

ففى هذا المصطدم يبدو للنظرة الأولى أن الرجل قد أضاع كل شىء وانهزم ، وهو فى الحقيقة غانم ظافر .

ويبدو لنا أنه قد ربح كل شىء وانتصر وهو فى الحقيقة خاسر مهزوم ..

ومن هنا يدخل التاريخ ألزم مداخله وأبينها عن قيمة البحث فيه ، لأنه المدخل الذى يفضى إلى الجزاء الحق والنتيجة الحقة ، وينتهى بكل عامل أفلح أو أخفق فى ظاهر الأمر إلى نهاية مطافه وغاية مسعاه فى الأمد الطويل .

وقد ظفر التاريخ فى الصراع بين الحسين بن علىّ ويزيد بن معاوية بميزان من أصدق الموازين التى تتاح لتمحيص الجزاء الحق فى أعمال الشهداء وأصحاب الطمع والحيلة ، فقلما تتاح فى أخبار الأمم شرقًا وغربًا عبرة كهذه العبرة بوضوح معالمها وأشواطها ، وفى تقابل النصر والهزيمة فيها بين الطوالع والخواتم ، على اختلاف معارض النصر والهزيمة .

فيزيد فى يوم كربلاء هو صاحب النصر المؤزر الذى لا يشوبه خذلان ..

وحسين فى ذلك اليوم هو المخذول الذى لم يطمح خاذله من وراء الظفر به إلى مزيد .

ثم تنقلب الآية أيما انقلاب ..

ويقوم الميزان ، فلا يختلف عارفان بين كفة الرجحان وكفة الخسران ..

وهذا الذى قصدناه إلى تبيينه وجلائه بتسطير هذه الفصول .

* * *

وما من عبرة أولى من هذه بالتبيين والجلاء لدارس التاريخ ودارس الحياة وطالب المعنى البعيد فى أطوار هذا الوجود .

ولسنا نقول إن الصراع بين الحسين ويزيد مثل جامع لكل ألوان الصراع بين الشهادة والمنفعة أو بين الإيمان والمآرب الأرضية ، فإن لهذا الصراع لألوانًا تتعدد ولا تتكرر على هذا المثال ، وإن له لعناصر لم تجتمع كلها فى طرفى الخصومة بين الرجلين ، وأشواطًا لم تتخذ الطريق الذى اتخذته هذه الخصومة فى البداية أو النهاية .

ولسنا نقول إن الصراع بين الحسين ويزيد مثل جامع لكل ألوان الصراع وتفردها بارزة ماثلة للتأمل والتعقيب ، وهى أن مسألة الحسين ويزيد قد كانت صراعًا بين خلقين خالدين ، وقد كانت جولة من جولات هذين الخلقين اللذين تجاولا أحقابًا غابرات

ولا يزالان يتجاولان فيما يلى من الأحقاب ، وقد أسفرا عن نتيجة فاصلة ينفرد لها مكان معروف بين سائر الجولات ، وليست جولة أخرى منهن بأحق منها بالتعليق والتصديق .

ووجهتنا من هذه العبرة أن يعطى كل خلق من أخلاق العاملين حقه بمعيار لا غبن فيه .

فإذا سعى أحد بالحيلة فخدع الناس وبلغ مأربه فليكن ذلك مغنمه وكفى ، ولا ينفعه ذلك فى استلاب السمعة المحبوبة والعطف الخالص والثناء الرفيع .

وإذا خسر أحد حياته فى سبيل إيمانه فلتكن تلك خسارته وكفى ، ولا ينكب فوق ذلك بخسارة فى السمعة والعطف والثناء .

فلو جاز هذا لكان العطف الإنسانى أزيف ما عرفناه فى هذه الدنيا من الزيوف ، لأن خديعة واحدة تشتريه وتستبقيه . وما من زيف فى العروض الأخرى إلا وهو ينطلى يومًا وينكشف بقية الأيام .

* * *

وإذا كان احتيال الإنسان لنفسه معطيه كل ما تهبه الدنيا من غنم النفع والمحبة والثناء ، فقد ربح المحتالون وخسر نوع الإنسان .

وإذا كانت خسارة المرء فى سبيل إيمانه تجمع عليه كل خسارة ، فالأحمق الفاشل من يطلب الخير للناس ويغفل عن نفسه فى طلابه .

فكفى الواصل ما وصل إليه .

وكثير عليه أن يطمع عند الخلف والسلف فيما ادخرته الإنسانية من الثناء والعطف لمن يكرمونها بفضيلة الشهادة والتضحية ، ويخسرون .

وهذا الفيصل العادل أعدل ما يكون فيما بين الحسين ويزيد .

فإذا قيل إن معاوية قد عمل وقد أفلح بالحيلة والدهاء ، فيزيد لم يعمل ولم يفلح

بحيلة ولا دهاء .. ولكنه ورث المنافع التي يشترى بها الأيدى والسيوف ، فجال بها جولة رابحة فى كفاح الضمائر والقلوب .

فينبغى ألا يربح بهذه الوسيلة ، فأما وقد ربح .. فينبغى أن يقف به الربح عند ذلك ، وينبغى للعذر الكاذب والثناء المأجور ألا يحسبا على الناس بحساب العذر الصادق والثناء الجميل .

وقد تزلف إلى يزيد من يتزلفون إلى أصحاب المال والسلطان ثم أخذوا أجورهم ، فينبغى أن يقوم ذلك الثناء بقيمة تلك الأجور وأن يكون ما قبضوه من أجر غاية ما استحقوه ، إن كانوا مستحقيه .

أما أن يضاف ثناء الخلود إلى صفقة أولئك المأجورين ، فقد أصبح ثناء الخلود إذن صفقة بغير ثمن ، أو هو علاوة مضمونة على صفقة كل مأجور .

إن صاحب الثناء المبذول لا يسأل عن شيء غير العطاء المبذول ، ولكن التاريخ خليق أن يسأل عن أعمال وأقوال قبل أن يبذل ما لديه من ثناء .

وليس فى تاريخ يزيد عمل واحد صحيح أو مدعى ولا كلمة واحدة صحيحة أو مدعاة ، تقيمه بحيث أراده المأجورون من العذر الممهد والمدح المعقول ، أو تخوله مكان الترجيح فى الموازنة بينه وبين الحسين .

كل أخطائه ثابتة عليه — ومنها بل كلها — خطؤه فى حق نفسه ودولته ورعاياه . وليس له فضل واحد ثابت ولا كلمة واحدة مأثورة تنقض ما وصفه به ناقدوه وعائبوه .

فقد كانت له ندحة عن قتل الحسين ، وكان يخدم نفسه ودولته لو أنه استبقاه حيث يتقيه ويرعاه .

وكانت له ندحة عن ضرب الكعبة واستباحة المدينة وتسليط أمثال مسلم بن عقبة وعبيد الله بن زياد على خلائق الله .

وكانت له ندحة عن السمعة التى لصقت به ولم تلصق به افتراء ولا ادعاء كما يزعم صنائعه ومأجوروه ، لأن واصفيه بتلك السمعة لم يلصقوا مثلها بأبيه .

ومن كان حقه فى النعمة التى نعم بها مغتصبًا ينتزعه عنوة ، لا يكن حقه فى الفضل والكرامة جزافًا لا حسيب عليه .

* * *

وتسديد العطف الإنسانى هنا فرض من أقدس الفروض على الناظرين فى سير الغابرين ، لأن العطف الإنسانى هو كل ما يملك التاريخ من جزاء ، وهو الثروة الوحيدة التى يحتفظ بها الخلود .

وإننا لنبدع الخطأ فى سياسة النفعيين ، وننظر إليهم كأنهم مصيبون فى السياسة بصراء بمواقع التدبير .

فعلى هذه الصفة — لو تمت لهم — لا يحق لخادم زمانه أن ينازع الشهداء فى ذخيرة العطف الخالد ، وهم خدام العقائد التى تتخطى حياة الأجيال كما تتخطى حياة الأفراد .

فإن حرمان الشهداء حقهم فى عطف الأسلاف والأخلاف خطأ فى الشعور ، وخطأ كذلك فى التفكير .

والناس خاسرون إذا بطل عطفهم على الشهداء ، وليس قصارى أمرهم أنهم قساة أو جاحدون .. لأن الشهادة فضيلة تروح وتأتى وتكثر حينًا وتندر فى غير ذلك من الأحيان . أما حب المنفعة فإن سميته فضيلة فهو من الفضائل التى لن تفارق الأحياء أجمعين ، من ناطقة وعجماء .

* * *

على أن الطبائع الآدمية قد أشربت حب الشهداء والعطف عليهم وتقديس ذكرهم بغير تلقين ولا نصيحة ، وإنما تنحرف عن سواء هذه السنة لعوارض طارئة أو باقية تمنعها أن تستقيم معها . وأكثر ما تأتى هذه العوارض من تضليل المنفعة والهوى القريب ، أو من نكسة فى الطبع تغريه بالضغن على كل خلق سوى وسجية سمحة محببة إلى الناس عامة ، أو من الإفراط فى حب الدعة حتى يجفل المرء من الشهادة استهوالاً لتكاليفها واستعظامًا للقدوة بها ، فيتهم الشهداء بالهوج ويتعقب أعمالهم بالنقد لكيلا يتهم نفسه

بالجبن والضعة ويستحق المذمة واللوم فى رأى ضميره . وإن لم يتهمهم بالهوج و لم يتعقبهم بالنقد ، وقف من فضائلهم موقف إزورار وفتور .. وجنح إلى معذرة الآخرين والتفاهم بينه وبين من لا يستشهدون ، ثم يعارضون الشهداء فيما يطمحون إليه .

ومعظم المؤرخين الذين يعارضون الشهداء ودعاتهم لغير منفعة أو نكسة هم من أصحاب الدعة المفرطة وأنصار السلامة الناجية ، ويغلب على هذه الخلة أن تسلبهم ملكة التاريخ الصحيح لأنها تعرضهم للخطأ فى الحكم والتفكير ، كما تعرضهم للخطأ فى العطف والشعور .

ومن المعقبين على تاريخ هذه الفترة عندنا — فى العربية — مؤرخ يتخذ منه المثل لكل من العذر والعطف حين يصل الأمر إلى الاستشهاد كراهة للظلم ودرءًا للمنكرات ، وهو الأستاذ محمد الخضرى صاحب تاريخ الأمم الإسلامية رحمه الله .

ففى تعقيبه على ثورة المدينة التى قدمنا الإشارة إليها يقول : « إن الإنسان ليعجب من هذا التهور الغريب والمظهر الذى ظهر به أهل المدينة فى قيامهم وحدهم بخلع خليفة فى إمكانه أن يجرد عليهم من الجيوش ما لا يمكنهم أن يقفوا فى وجهه . ولا ندرى ما الذى كانوا يريدونه بعد خلع يزيد ؟ .. أيكونون مستقلين عن بقية الأمصار الإسلامية ، لهم خليفة منهم يلى أمرهم أم حمل بقية الأمة على الدخول فى أمرهم ؟ وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية الأمصار و لم يكن معهم فى هذا الأمر أحد من الجنود الإسلامية ؟ إنهم فتقوا فتقًا وارتكبوا جرمًا فعليهم جزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة ، وكان اللازم على يزيد وأمير الجيش أن لا يسرف فى معاملتهم بهذه المعاملة .. فإنه كان من الممكن أن يأخذهم بالحصار .. » .

* * *

ويخيل إليك وأنت تقرأ كلام الأستاذ عن هذه الفترة كلها أن لديه أعذارًا ليزيد وليس لديه عذر لأهل المدينة . لأنه يفهم كيف يغضب المرء لما فى حوزته ، ولا يفهم كيف تضيق به كراهة الظلم وغيرة العقيدة عن الاحتمال .

وشعوره هذا يحول بينه وبين الحكم الصحيح على حوادث التاريخ ، لأنه يحول بينه

وبين انتظار هذه الحوادث حيث تنتظر لا محالة ، واستبعادها حيث هى بعيدة عن التقدير .

فلم يحدث قط فى مواجهة الظلم وانتزاع الدول المكروهة أن شعر الناس كما أرادهم الأستاذ أن يشعروا،أو فكروا فى الأمر كما أرادهم أن يفكروا .

ومستحيل حدوث هذا أشد الاستحالة ، وليس قصاراه أنه لم يحدث من قبل فى حركات التاريخ .

فهذه الحركات التى تواجه الدول المكروهة لا تنتظر – ولا يمكن أن تنتظر – حتى تربى قوتها وعدتها على ما فى أيدى الدولة التى تكرهها من قوة وعدة .

ولكنها حركة أو دعوة تبدأ بفرد واحد يجترئ على ما يهابه الآخرون ، ثم يلحق به ثان وثالث ورابع ما شاء له الإقناع وضيق الذرع بالأمور ، ثم ما ينالهم من نقمة فيشيع الغضب وينكشف الظلم عمن كان فى غفلة عنه ، ثم يشتد الحرج بالظالم فيدفعه الحرج إلى التخبط على غير هدى ، ويخرج من تخبط غليظ أحمق إلى تخبط أغلظ منه وأحمق .. فلا هم يقفون فى امتعاضهم وتذمرهم ولا هو يقف فى بطشه وجبروته ، حتى يغلو به البطش والجبروت فيكون فيه وهنه والقضاء عليه .

وعلى هذا النحو يعرف المؤرخ الذى يعالج النفوس الآدمية ما هو من طبعها وما هو خليق أن ينتظر منها ، فلا يعالجها حق العلاج على أنها مسألة جمع وطرح فى دفتر الحساب بين هذا الفريق وذاك الفريق .

وعلى هذا النحو تكون حركة الحسين قد سلكت طريقها الذى لابد لها أن تسلكه ، وما كان لها قط من مسلك سواه .

* * *

وصل الأمر فى عهد يزيد إلى حد لا يعالج بغير الاستشهاد وما نحا منحاه .

وهذا هو الاستشهاد ومنحاه . وهو – بالبداهة التى لا تحتاج إلى مقابلة طويلة – منحى غير منحى الحساب والجمع والطرح فى دفاتر التجار .

ومع هذا يدع المؤرخ طريق الشهادة تمضى إلى نهاية مطافها ثم يتناول دفتر التجار كما يشاء .. فإنه لواجد فى نهاية المطاف أن دفتر التجار لن يكتب الربح آخرًا إلا فى صفحة الشهداء .

فالدعاة المستشهدون يخسرون حياتهم وحياة ذويهم ، ولكنهم يرسلون دعوتهم من بعدهم ناجحة متفاقمة فتظفر فى نهاية مطافها بكل شيء حتى المظاهر العرضية والمنافع الأرضية .

وأصحاب المظاهر العرضية والمنافع الأرضية يكسبون فى أول الشوط ثم ينهزمون فى وجه الدعوة المستشهدة حتى يخسروا حياتهم أو حياة ذويهم ، وتوزن حظوظهم بكل ميزان فإذا هم بكل ميزان خاسرون ..

وهكذا أخفق الحسين ونجح يزيد .

ولكن يزيد ذهب إلى سبيله وعوقب أنصاره فى الحياة والحطام والسمعة بعده بشهور ، ثم تقوضت دولته ودولة خلفائه فى عمر رجل واحد لم يجاوز الستين .

وانهزم الحسين فى كربلاء وأصيب هو وذووه من بعده ولكنه ترك الدعوة التى قام بها ملك العباسيين والفاطميين وتعلل بها أناس من الأيوبيين والعثمانيين ، واستظل بها الملوك والأمراء بين العرب والفرس والهنود ، ومثل للناس فى حلة من النور تخشع لها الأبصار .

وباء بالفخر الذى لا فخر مثله فى تواريخ بنى الإنسان غير مستثنى منهم عربى ولا أعجمى وقديم ولا حديث .

أبو الشهداء

فليس فى العالم أسرة أنجبت من الشهداء من أنجبتهم أسرة الحسين عدة وقدرة وذكرة .. وحسبه أنه وحده فى تاريخ هذه الدنيا الشهيد ابن الشهيد أبو الشهداء فى مئات السنين .

وأيسر شيء على الضعفاء الهازلين أن يذكروا هنا طلب الملك ليغمزوا به شهادة الحسين وذويه .

فهؤلاء واهمون ضالون مغرقون فى الوهم والضلال .

لأن طلب الملك لا يمنع الشهادة ، وقد يطلب الرجل الملك شهيدًا قديسًا ويطلبه وهو مجرم برىء من القداسة .

وإنما هو طلب وطلب ، وإنما هى غاية وغاية ، وإنما المعول فى هذا الأمر على الطلب لا على المطلوب .

فمن طلب الملك بكل ثمن ، وتوسل له بكل وسيلة ، وسوى فيه بين الغصب والحق وبين الخداع والصدق وبين مصلحة الرعية ومفسدتها ، ففى سبيل الدنيا يعمل لا فى سبيل الشهادة .

ومن طلب الملك وأباه بالثمن المعيب ، وطلب الملك حقًّا ولم يطلبه لأنه شهوة وكفى ، وطلب الملك وهو يعلم أنه سيموت دونه لا محالة ، وطلب الملك وهو يعتز بنصر الإيمان ولا يعتز بنصر الجند والسلاح ، وطلب الملك دفعًا للمظلمة وجلبًا للمصلحة كما وضحت له بنور إيمانه وتقواه ، فليس ذلك بالعامل الذى يخدم نفسه بعمله ، ولكنه الشهيد الذى يلبى داعى المروءة والأريحية ويطيع وحى الإيمان والعقيدة ويضرب للناس مثلاً يتجاوز حياة الفرد الواحد وحياة الأجيال الكثيرة .

ومن ثم يقيم الآية بعد الآية على حقيقة الحقائق فى أمثال هذا الصراع بين الخلقين أو بين المزاجين والتاريخين .

وهى أن الشهادة خصم ضعيف مغلوب فى اليوم والأسبوع والعام ..

ولكنها أقوى الخصوم الغالبين فى الجيل والأجيال ومدى الأيام ..

وهى حقيقة تؤيدها كل نتيجة نظرت إليها بعين الأرض أو بعين السماء على أن تنظر إليها فى نهاية المطاف .

ونهاية المطاف هى التى يدخلها « نوع الإنسان » فى حسابه ويوشج عليها وشائج عطفه وإعجابه . لأنه لا يعمل لوجبات ثلاث فى اليوم ، ولا ينظر إلى عمر واحد بين مهد ولحد ، ولكنه يعمل للدوام وينظر إلى الخلود .

في عالم الجمال

عاشق الجمال

إذا لحقت السيرة بعالم المثال الذى يتطلع إليه خيال الشعراء وتتغنى به قرائح أهل الفن ، فقد تنزهت عن ربقة الجسد وأصبحت صورة من الصور المثلى فى عالم الجمال .

ومن آيات الجمال أنه يتحدى المنفعة ويؤثر البطولة على السلامة .

فإذا تعلقت القريحة بالجمال ، فلا جرم تزن الأمور بغير ميزان الحساب والصفقات .. فتعرض عن النعمة وهى بين يديها وتقبل على الألم وهى ناظرة إليه ، وتلزمها سجية العشق الآخذ بالأعنة ، فتنقاد له ولا تنقاد لنصيحة ناصح أو عذل عاذل .. لأن المشغوف بالجمال ينشده ولا يبالى ما يلقاه فى سبيله .

وقد تمثلت سجية عاشق الجمال فى كل شعر نظمه شعراء الحسين وذويه تعظيمًا لهم وثناء عليهم .. فلم يتجهوا إليهم ممدوحين وإنما اتجهوا إليهم صورًا مثلى يهيمون بها كما يهيم المحب بصورة حبيبة ، ويستعذبون من أجلها ما يصيبهم من ملام وإيلام .

وفى معنى كهذا المعنى يقول الكميت شاعر أهل البيت :

طربت وما شوقًا إلى البيض أطرب
ولا لعبًا منى ، وذو الشيب يلعب
ولم يلهنى دار ولا رسم منزل
ولم يتطربنى بنان مخضب
ولا أنا ممن يزجر الطير همه
أصاح غراب أم تعرض ثعلب

ولا السانحات البارحات عشية
أمر سليم القرن أم أمر أعضب[1]

ولكن إلى أهل الفضائل والنهى
وخير بنى حواء ، والخير يطلب

إلى النفر البيض الذين بحبهم
إلى الله فيما نالنى أتقرب

بنى هاشم ، رهط النبى ، فإننى
بهم ولهم أرضى مرارًا وأغضب

خفضت لهم منى جناحى مودة
إلى كنف عطفاه أهل ومرحب

يشيرون بالأيدى إلى وقولهم
ألا خاب هذا ، والمشيرون أخيب

فطائفة قد كفرتنى بحبكم
وطائفة قالوا : مسيء ومذنب

فما ساءنى تكفير هاتيك منهم
ولا عيب هاتيك التى هى أعيب

يعيبوننى من خبهم وضلالهم
على حبكم ، بل يسخرون وأعجب

وقالوا : ترابى[2] هواه ورأيه
بذلك أدعى فيهم وألقب

على ذاك اجرياى ، فيكم ضريبتى
ولو جمعوا طرا على وأجلبوا

وأحمل أحقاد الأقارب فيكم
وينصب لى فى الأبعدين فأنصب

(١) السانح الطير الذى يمر من اليسار إلى اليمين وعكسه البارح ، والأعضب المكسور القرن .
(٢) من كنى على بن أبى طالب « أبو تراب » وترابى نسبة إليه .

وقد مرَّ بنا حديث زيد العابدين رضى الله عنه ، وهو غلام عليل أوشك أن يتخطفه الموت بكلمة من عبيد الله بن زياد لأنه استكبر «أن تكون به جرأة على جوابه» .

فهذا الغلام العليل قد عاش حتى انعقد له ملك القلوب حيث انعقد ملك الأجسام لهشام بن عبد الملك سيد ابن زياد وآله .

وذهب هشام بين جنده وحشمه يحج البيت ويترضى الناس ، فلم يخلص إلى الحجر الأسود لتزاحم الحجيج عليه . وإنه لجالس على كرسيه ينتظر انفضاض الناس إذا بزين العابدين يقبل إلى الحجر الأسود فى وقاره وهيبته ، فيتنحى له الحجيج ويحفوا به وهو يستسلم مطمئنا غير معجل .. ثم يعود من حيث أتى والناس مشيعوه بالتجلة والدعاء .

وتهول رجلاً من حاشية هشام هذه المهابة التى لم يرها لمولاه فيسأل : « من هذا الذى هابه الناس هذه الهيبة ! »

ويخشى هشام أن يطلع جنده على مكانة رجل لم يتطاول إلى مثل مكانته بسلطانه وعتاده فيقول : « لا أعرفه » .. ويقتضب الجواب .

وهذا الذى تصدى له شاعر آخر قد غامر بحياته ونواله ليقول بالقصيد المحفوظ ما ثقل على لسان هشام أن يقوله فى كلمتين عابرتين .

وذلك هو الفرزدق حيث قال :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم
هذا التقى النقى الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله
بجده أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك من هذا بضائره
ألعرب تعرف من أنكرت والعجم

إذا رأتــه قــريش قــال قائلهــا :
إلى مكــارم هــذا ينتهى الكــرم
مــن مــعشر حبهم ديــن ، وبغضهــم
كفــر ، وقــربهم منجــى ومعــتصم

* * *

وتصدى عبيد الله بن كثير لأمير مكة — خالد بن عبيد الله — فلعنه وهو قادر على قتله لأنه يلعن عليًا وحسينًا فى خطبه ، وأنشد :

لعن الله مــن يسب عليًّــا وحسينًــا من سوقة وإمــام
أيســب المطهــرون جــدودًا والكــرام الآبــاء والأعمــام
يأمن الطير والحمام ولا يأ من آل الرسول عند المقام
طبت بيتًا وطاب أهلك أهلاً أهــل بيت النبــى والإسلام
رحمة الله والسلام عليــه كلمــا قــام قــائم بسلام

* * *

وتنقضى السنون وتتسامع العربية بشاعر فحل لم يسلم من لسانه أحد ، ولم ينزِّه أحدًا من المجزلين له أو المقترين عليه من استحقاق الهجاء .. فكان ينشد الأبيات المقذعة ، ويُسأل عن صاحبها فيقول : « لم يستحقها أحد بعينه بعد ، ولسوف يستحقها كثيرون » .

هذا الشاعر العجيب هو دعبل الخزاعى الذى يهز أوتار النفوس بأمثال هذه الأبيات فى آل البيت :

مــدارس آيــات خــلت مــن تــلاوة
ومنــزل وحــى مقفــر العــرصات ! ..
لآل رسول الله بالخيــف مــن منــى
وبالركــن والتعريــف والجمــرات

ديـــار علـــىّ والحسين وجعفـــر
وحمزة والسجـــاد ذى الثفنـــات[١]
ديـــار عفاهـــا كل جـــون مبـــادر
ولم تعـــف للأيـــام والسنـــوات

إلى أن يقول :

مـــلامك فى أهـــل النبـــى فـــإنهم
أحبـــاى مـــا عـــاشوا وأهـــل ثقـــاتى
فيـــارب زدنى مـــن يقينـــى بصيرة
وزد حبهم يـــارب فى حسنـــاتى
أحب قصى الرحـــم من أجـــل حبهم
وأهجـــر فيهم أسرتى وبنـــاتى
لقـــد حـــفت الأيـــام حنولى بشرهـــا
وإنى لأرجـــو الأمـــن بعـــد وفـــاتى
ألم تـــر أنى مـــن ثـــلاثين حجـــة
أروح وأغـــدو دائم الحسرات
أرى فيئهـــم فى غيرهـــم متقسمًـــا
وأيـــديهم مـــن فيئهـــم صفـــرات
فـــآل رسول الله نحف جسومهـــم
وآل زيـــاد حفـــل الـــقصرات[٢]
بنـــات زيـــاد فى الـــقصور مصونـــة
وآل رسول الله فى الفلـــوات ! ..
إذا وتـــروا مـــدوا إلى أهـــل وترهـــم
أكفًـــا عـــن الأوتـــار منقـــبضات ! ..

---

(١) كان علىّ بن الحسين يلقب بذى الثفنات لأن جبهته أصبحت كثفنة البعير - أى ركبته - من كثرة السجود .

(٢) القصرة الرقبة ، وحفل القصرات أى غلاظ الرقاب من السمن .

ووهب على بن موسى الرضا للشاعر جائزة من دراهمه المضروبة باسمه وخلع عليه من ثيابه ، فبذل له أهل « قم » ثلاثين ألف درهم ليبيعهم الخلعة فضن بها . ثم ترصدوا له فى الطريق ليأخذوها منه عنوة تبركًا وذكرى . فسمح بالمال ولم يسمح بالخلعة .. واسترضوه فلم يرض إلا أن يعطوه كمًّا من أكمامها ليدفن معه فى كفنه ، وتقسموا الخلعة بينهم فخورين بها غير مبالين ما بذلوه فى ثمنها .

وانقضت فترة لم تطل .. وتسامعت العربية بشاعر آخر أفحل من دعبل وأقدر منه على التصرف بالهجاء والمديح .

ذلك هو العباس على بن الرومى الذى نسى ممدوحيه من آل طاهر وبنى العباس ليذكر حق حفيد الحسين يحيى بن عمر الشهيد . ولو كلفه ذكره القتل والحرمان .

وفى بعض ما ساقه من النذر لأمراء زمانه مهلكة له قلما يفلت منها قائل بحياته ، وذاك حيث يقول من قصيدته الجيمية :

غررتم لئن صدقتم أن حالة
تدوم لكم ، والدهر لونان ، أخرج

لعل لهم فى منطوى الغيب ثائرًا
سيسمو لكم والصبح فى الليل مولج

بمجر تضيق الأرض من زفراته
له زجل ينفى الوحوش وهزج[1]

يود الذى لاقوه أن سلاحه
هنالك خلخال عليه ودملج

فيدرك ثأر الله أنصار دينه
ولله أوس آخرون وخزرج

ويقضى أمام الحق فيكم قضاءه
مبينًا ، وما كل الحوامل تخدج

---

(١) الهزمة اختلاط الصوت ، والمجر الجيش الكبير .

وكل أولئك شاعر ينسى التقوى فى مواطن شتى من عمله وقوله ولا ينساها فى حق الشهداء من آل الحسين وصحبه .. لأنه يحس الجمال إحساس الشعراء ويهتز « للصورة المثلى » اهتزاز الأريحية التى يحلم بها رواد الخيال . فهم هنا بمربأة من قيود العيش ووساوس الحاجة وأعباء النوازع الأرضية ، يستوحون سليقة القول فيما ينبغى أن يقال .. فيجرى على لسانهم كأنهم مسوقون إليه .

بل كل أولئك شاعر لا يسخو بالمدح وهو موصول بالعطاء الجزيل ، ثم هو يسخو به للشهداء وآلهم على غير أمل فى نوال ، وعلى خوف شديد من الحرمان والوبال .

* * *

وشاعر آخر لم يكن يهجو من الناس هذا أو ذاك ، ولكنه كان سيىء الظن بالناس أجمعين .. وكان يقول ما بدا له فى الدنيا والدين ، ولكنه يجامل مع المجاملين فلا يقصر عن شأوهم فى السابقين أو اللاحقين .

ذلك هو أبو العلاء المعرى حيث قال فى الفجر والشفق :

وعلى الدهر من دماء الشهيد
ين علىّ ونجله شاهدان
فهما فى أواخر الليل فجرا
ن وفى أولياته شفقان
ثبتا فى قميصه ليجىء الحشـ
ـر مستعديًا إلى الرحمن

وإن وحى الشعر من سرائر النفوس لأصدق حكمًا من لسان التاريخ إذا اختلف الحكمان .

ولكنهما قد توافيا معًا على مقال واحد .. فجلوا لنا من سيرة الحسين رضى الله عنه صورة الجمال فى عالم المثال ، وكذلك يعيش ما عاش فى أخلاد الناس .

فهـــرس

رقم الإيداع ٩٣/١٠٣٧٦ I.S.B.N 977-14-0177-7




نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع